

وَلَيْتَكَ تَرْضَى

رحلة القلب إلى المحبة والرضا وحسن العبودية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَيْتَكَ تَرْضَى

رحلة القلب إلى المحبة والرضا وحسن العبودية

هذا الكتاب وقف لله تعالى

إلى قلب يرجو

إلى من أحب ربه، وشق عليه الطريق، فاحتاج إلى كلمة تعينه على الصدق.

إلى من عرف تقصيره، ولم يرد أن ينقطع عن باب التوبة.
إلى من يرجو أن تكون صلاته وحياته ومعاملته للناس أقرب إلى ما يرضي الله.

نسأل الله أن ينفع بهذه الصفحات كاتبها وقارئها، ومن أعان على وصولها إلى قلب محتاج.

واذكرنا بدعوة؛ لنا ولوالدينا، ولكل من أعان على وصول هذه الصفحات إليك.

جهدٌ مشتركٌ، نسأل الله فيه الإخلاص والقبولَ

هذا الكتاب وقف لله تعالى

يؤذن بتداوله والانتفاع به مع حفظ نصوصه ونسب النقول إلى أصحابها.

محتويات الكتاب

٧	قبل أن نبدأ.....
٩	الباب ١: حين يستيقظ القلب.....
١٠	حين تثقل الروح.....
١٣	قلب لا يشبعه المتاع.....
١٦	ذاق طعم الإيمان.....
٢٠	يحبههم ويحبونه.....
٢٣	الطريق الذي دلّ عليه الحبيب.....
٢٦	خوف ورجاء يحفظان المحبة.....
٢٩	الباب ٢: وليتك ترضى.....
٣٠	حين يتعارض الرضيان.....
٣٩	ما لا يقوله المديح.....
٤١	لك وحدك.....
٤٣	باب لا يراه الناس.....
٤٧	لا تساوم على قلبك.....
٥٠	رضوان لا يعقبه سخط.....
٥٤	الباب ٣: والحياة مريرة.....
٥٥	الذي تبكي أمامه.....
٥٨	إن لله ما أخذ.....
٦٣	لا يزال للدعاء مكان.....

٦٦	العافية التي نرجوها
٦٩	الصبر الذي تستطيعه
٧٣	ما خفي عنك من الحكمة
٧٦.....	الباب ٤: وليت الذي بيني وبينك عامر
٧٧	موعدك مع الصلاة
٨١	القرآن حين يسمعه قلبك
٨٤	الذكر الذي يردك
٨٧	ولليل نصيب
٩٠	عدّ كلهما ابتعدت
٩٤	من باب الفرائض
٩٧.....	الباب ٥: إلى الله بين عبادِه
٩٨	لا تهدم ما أمرك الله بعمارته
١٠١.....	بيتك موضع عبادتك
١٠٥.....	دع قلبك يحنو عليهم
١٠٨.....	في حضرة غضبك
١١١.....	الصحبة التي تعينك
١١٤.....	سريرة يصلح بها الظاهر
١١٨.....	الباب ٦: إذا صح منك الودّ
١١٩.....	التوكل الذي يحمل قلبك
١٢٣.....	يد تعمل وقلب يتوكل
١٢٦.....	يقين يعرف قدره
١٣٠.....	الشكر حين تتسع الحياة

١٣٤.....	أن تبذل مما تحب
١٣٨.....	الأنس الذي يصحبك
١٤١.....	الباب ٧: وكل الذي فوق التراب تراب
١٤٢.....	حقيقة المسافر
١٤٥.....	تملك المال ولا يملكك
١٥١.....	حين تذكر مصعباً
١٥٤.....	ما لا تأخذه الأرض
١٥٨.....	نعم ترجو بلوغه
١٦٣.....	على باب اللقاء
١٦٧.....	الباب ٨: حتى آخر الطريق
١٦٨.....	لا نهاية للعبودية
١٧١.....	الغني الشاكر والفقير الصابر
١٧٤.....	اصدق في ضعفك
١٧٧.....	حين يصير الرجاء عملاً
١٨٠.....	والكل هين
١٨٤.....	وليتك ترضى
١٨٧.....	إحالات النصوص ومصادرها
١٩٧.....	فهرس الآيات المستقلة
٢٠٠.....	كتب صحبت الرحلة

قبل أن نبدأ

الحمد لله الذي عرفنا بنفسه، ودلنا على ما يحب ويرضى، وفتح لعباده باب الدعاء والتوبة، وجعل في الإيمان حياة للقلوب. نحمده على نعمه، ونستغفره من تقصيرنا، ونسأله صدق التوجه إليه وحسن العبودية له. والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي علمنا كيف نعبد ربنا، وكيف نحسن إلى عباده، وعلى آله وصحبه أجمعين.

في هذه الصفحات رحلة مع المحبة والرضا والصبر والإخلاص والتوكل والزهد؛ تبدأ من حاجة القلب إلى الله، وتمضي به إلى الصلاة والقرآن والذكر، ثم إلى البيت والناس والمال، وتنتهي عند الاستعداد للقائه. نقرأ الآية والحديث والخبر الثابت، ونستضيء بشرح أهل العلم، ثم نسأل عما يمكن أن يتحول من هذا العلم إلى عمل.

يصحبنا في الرحلة رجاء تدل عليه عبارة «وليتك ترضى». وقد أورد ابن القيم الأبيات المشهورة في منزلة الإيثار من «مدارج السالكين»، في سياق تقديم رضا الله على رضا غيره. نقرأها في ضوء الوحي، ونرد ألفاظها المحتملة إلى ما يصح من المعنى؛ فالشعريفتح باب التأمل، والقرآن والسنة يبينان الطريق.

فَلَيْتَكَ تَحُلُوْا وَالحَيَاةُ مَرِيْرَةٌ
وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرُ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيْنُ
وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تَرَابُ

ولأن معاني المحبة قد تلتبس بدعاوى لا دليل عليها، فإن هذه الرحلة تحفظ أصل التوحيد ومتابعة الرسول ﷺ، وتجمع المحبة بالخوف والرجاء، وتصل صلاح القلب بأداء الفرائض والحقوق. لا يخرج العبد من عبوديته مهما زاد علمه، ولا يستغني عن ربه مهما كثر عمله.

فامض في القراءة على مهل. قد تكفيك صفحة لتعرف حقاً أهملته، أو باب رجوع أجلته. وما نتعلمه عن الله وعن طاعته يستحق أن يدخل يومنا، وأن يظهر في صدقنا ورحمة قلوبنا بالناس.

في هذه الصياغة المحررة خُففت النقول المطولة، وُجِّعت المعاني المتكررة. ما بين علامتي الاقتباس في مقتطفات العلماء من ألفاظ مصادرههم، وما يليه بيان محرر لمعناه، مع عزو الأحاديث إلى الرواية المختارة. وتبقى الفروق بين النقل والتفسير ظاهرة ليقرأ القلب على بصيرة.

قبل أن نبدأ

الباب ١

حين يستيقظ القلب

حين تثقل الروح

قد تبلغ آخر يومك وقد فعلت أشياء كثيرة، ثم تعجز عن تسمية الشيء الذي أتعب قلبك. بعض ما أردته تحقق، وبعض من تحب لا يزال قريباً، وفي يدك نعم تعرف أنك لا تحصيها. ومع ذلك يبقى في الداخل سؤال لا يسكت بكثرة الانشغال: إلى أين أمضي بكل هذا الذي أحمله؟

وقد تأتيك الأيام بما تكره، فيصير السؤال أشد إلحاحاً. تحاول أن تصبر ثم تبكي، وتدعو ثم تنتظر، وتخشى أن يكون حزنك دليلاً على ضعف محبتك. وهذه الصفحات تبدأ من هنا؛ من إنسان يحتاج أن يتعلم كيف يحب ربه وهو بشر، وكيف يطيعه وهو يجاهد نفسه، وكيف يرجوه حين تضيق عليه نفسه وأيامه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^ص

[فاطر: ١٥]

لست مطالباً أن تخترع لنفسك حاجة إلى الله. أنت محتاج إليه قبل أن تشعر بحاجتك، وفي العافية كما في المرض، وفي الساعة التي تحسن فيها تدبير أمورك كما في الساعة التي تعجز فيها عن أبسطها. وإذا أدرك القلب هذا الفقر تبدل معنى الدعاء عنده؛ لم يعد حديث الطوارئ وحدها، بل صار اعتراف العبد بحقيقته.

ابن القيم، طريق المهجرتين وباب السعادتين — مقتطف وبيان^١

«الفقر فقران: فقر اضطرارى، وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه»

يعيد ابن القيم في صدر «طريق المهجرتين» معنى الفقر إلى أصله: نحن محتاجون إلى الله في وجودنا وبقائنا، لا في أوقات انقطاع الأسباب وحدها. والغني من الناس لا يستغني عنه بماله، كما أن الفقير لا ينفرد بهذه الحاجة دون غيره. هذا افتقار الخلق جميعاً، سواء عرفوه أم غفلوا عنه.

ثم يميز من ذلك فقراً يختاره العبد بقلبه؛ يعرف ربه، ويعرف نفسه، فيزداد خضوعاً له وثقة به. ليس المقصود أن ينفي ما وهبه الله من قدرة، بل أن يعرف مصدرها، وألا يحول النعمة إلى دعوى استغناء. تعمل لأن الله أقدرك، وتعلم لأنك محتاج إلى الهدى، وتدعوه لأن قوتك لا تكفيك وحدها.

ويتصل بهذا أن تنظر إلى ما في يدك بوصفه أمانة. ملكك للمال ثابت في أحكام المعاملات، لكنه ليس ملكاً مستقلاً عن الله؛ فلا تجمع من حرام، ولا تمنع به حقاً، ولا تجعل خوف نقصه سيد قراراتك. وقد يكثر المال في يد إنسان ويبقى قلبه سخياً، ويقل في يد آخر فيستعبده التعلق به.

تأمل أثر ذلك في يوم عادي. حين تستيقظ وتستعيد أسماء ما عليك من أعمال، تستطيع أن تبدأها وأنت تستحضر أن قوتك نفسها عطية، وأن فرصة الإصلاح التي بقيت لك رحمة. لن يصير العمل بلا مشقة، لكنك تحمل مشقته على معنى أوسع من إثبات قدرتك أمام الناس.

ليس كل تعب سببه واحد، ولا تختصر حاجات النفس والبدن في كلمة. قد تحتاج إلى نوم أو علاج أو مساعدة صادقة، وكل ذلك مما يؤخذ بأسبابه. غير أن القلب، وهو يتناول هذه الأسباب، يحتاج إلى وجهته. من أين يستمد معنى ما يصنع؟ ولمن يرجع إذا قصرت قدرته؟ وماذا يبقى له إذا تعطل شيء مما اعتمد عليه؟

قلب لا يشبعه المتاع

في بعض اللحظات تظن أن شيئاً واحداً ينقصك، وأنت متى حصلت عليه استرحت. ثم تحصل عليه، وتفرح به فرحاً مشروعاً، وبعد وقت يتقدم نقص آخر إلى واجهة القلب. ليست المشكلة أن النعمة لم تكن نعمة؛ وإنما أنك انتظرت من شيء محدود أن يحمل حاجتك كلها.

للبيت دفؤه، وللصديق مؤانسته، وللرزق أثره، وللعافية نعمتها. وشكر الله يقتضي أن تعرف لهذه النعم قدرها. لكن شيئاً منها لا يستحق أن يصير معبود القلب، أو أن تباع من أجله الصدق والرحمة والطمأنينة إلى وعد الله.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

[الرعد: ٢٨]

قد تنشغل بالدفاع عن مكانتك حتى تتغير أخلاقك، أو تطلب الأمان في المال حتى تستوحش من بذله في حق واجب. وحينئذ لا يعود السؤال: كم تملك؟ بل: ماذا يملك قرارك؟ إن الله الذي أباح لك الطيبات هو الذي أمرك أن تبقى عبداً له وأنت تتناولها.

ابن تيمية، العبودية - مقتطف وبيان^٢

«فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما أن الغنى غنى النفس»

يربط ابن تيمية الحرية بما يستولي على القلب. فقد يبدو الإنسان مطاعاً بين الناس، وهو أسير رضاهم؛ يغير الحق ليبقى في منصبه، أو يبذل دينه كيلا يفقد حظاً من المال أو المحبة. ليست العبرة بصورة القوة في الخارج، بل بما يقدر أن يقوده في الداخل.

ويميز في مطالب الدنيا بين حاجة ينتفع بها العبد، وتعلق يستعبده. فالطعام والمسكن والكسب والزواج من مصالح الحياة، ويطلبها المسلم بالأسباب المباحة. وإنما يختل القلب حين يصير حصولها شرطاً لطاعته، فإذا أعطي رضي، وإذا منع سخط واعترض.

وفي كلامه حث على الاستعفاف عن أموال الناس، وهذا لا يمنع مطالبة الإنسان بحقه، ولا طلب الإعانة المباحة عند الحاجة، ولا التعاون فيما يقدر عليه الخلق. فإفراد الله بالعبادة والتوكل لا يلغي الأسباب التي أذن بها؛ وقد سبق في هذا الفصل أن البيوت والأعمال والعلاقات نعم تستحق الشكر.

ومن أدق ما يقرره أن المحبة الفاسدة تزاحمها محبة أصلح منها. لا يكفي أن تأمر قلبك بالنسيان ثم تتركه فارغاً؛ أشغله بطاعة يعرف معناها، وبصحبة تعينه، وبعمل ينفع. ومع هذا تبقى المجاهدة والاستعانة، ولا تدعي أن شدة التعلق تزول بكلمة واحدة أو أن كل تعلق بشري عبادة لغير الله.

قد يكون أول إصلاحك أن تسمي الشيء الذي تخشى فقدته أكثر مما ينبغي. ليس لتقسو على نفسك أو تعتمد إفساد ما تحب، بل لتعيده إلى موضعه. تحب ولدك فتقوم بحقه، وتحب عملك فتتقنه، وترجو رزقاً فتسعى إليه. ثم لا تجعل واحداً من ذلك عذراً لمعصية تعرفها.

وهذا الترتيب يحتاج إلى مجاهدة متكررة. ربما نجحت اليوم في رد كلمة قاسية، ثم غلبتك نفسك غداً. وربما أنفقت مرة مطمئناً، ثم شق عليك الإنفاق مرة أخرى. لا تنقض الأصل لأن تطيقه لم يكتمل؛ ارجع إليه، واستعن بالله على نفسك.

إن القلب الذي يعرف قدر الدنيا أقدر على الانتفاع بها؛ لأنه لا يطالبها بالخلود. يأخذ منها ما يعينه، ويشكر ما أوتي، ولا يستبجح في طلبها ما حرم الله.

ذاق طعم الإيمان

ليست حلاوة الإيمان لفظاً اخترعه أصحاب المواعظ. لقد أخبر بها رسول الله ﷺ، وربطها بمعان معلومة، حتى لا يضل الإنسان في طلبها وراء إحساس عابر أو دعوى لا دليل عليها.

عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا»

صحيح مسلم، الحديث ٣.٣٤

أن ترضى بالله رباً يغير موضع قلبك من أوامره. تعرف أنه سبحانه أحق بالطاعة، وأنت عبد تحتاج إلى هدايته. وأن ترضى بالإسلام ديناً يعني أن تلتقه بالقبول، وأن تجاهد نفسك على امتثاله. وأن ترضى بمحمد ﷺ رسولاً يعني أن تقصد طريقه، وتعلم سنته، وتقدم هديه على ما يستحسنه الناس أو تميل إليه نفسك.

ثم تأمل الحديث الآخر الذي يجمع أبواب هذه الحلاوة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»

صحيح مسلم، الحديث ٤.٤٣

النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - مقتطف وبيان^٥

«معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في رضى الله عز وجل ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا»

هذا تفسير ينقله النووي عن العلماء في شرحه للحديث. الحلاوة هنا ليست انفعالا منفصلا عن الدين؛ إنها ثمرة قبول الحق، ومحبة الطاعة، وتقديم ما يرضي الله حين يخالف هوى النفس. وقد تصحبها لذة ظاهرة، وقد يظهر أثرها في ثبات العبد على واجب يشق عليه.

وينقل عن القاضي عياض اتصالها بقوة اليقين وطمأنينة النفس بالإيمان. فمن هنا يعرف القارئ أن الطريق إليها يكون بمعرفة الله واتباع رسوله، وأن تفاوت الشعور لا يسوغ له أن يحكم على نفسه بالقبول أو الرد.

قد لا تجد في كل صلاة القدر نفسه من حضور القلب. وقد تمر بك أيام ثقل فتحتاج إلى مزيد من المجاهدة. فلا تجعل تفاوت الاحساس حكماً قاطعاً على علاقتك بالله، ولا تعتمد ترك الطاعة لأنك لم تذوق لذتها بعد. من صدق في السير سأل ربه الثبات وواصل العمل، وهو يعلم أن الفضل كله منه.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^٦

«دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.»

يجمع ابن القيم عشرة أسباب تقرب القلب من محبة الله: قراءة القرآن بفهم، والنوافل بعد الفرائض، ودوام الذكر، وتقديم ما يحبه الله عند غلبة الهوى، ومعرفة أسمائه وصفاته، وتأمل إحسانه ونعمه، وانكسار القلب بين يديه، ومناجاته في الليل وختمها بالاستغفار، ومجالسة الصادقين، والابتعاد عما يحول بين القلب وربّه.

هذه الأسباب متكاملة؛ فالعلم يصحح المحبة، والعمل يصدقها، والذكر يغذيها، والصحبة تحفظها. ومعرفة النعم لا تنحصر في تذكر ما وافق رغبتك، بل تشمل هدايتك إلى التوبة وستره عليك وإمهاله لك.

اقرأ هذه الأسباب وأنت تنظر إلى يومك. أي باب منها غاب طويلاً؟ وأي عمل تستطيع أن تعود إليه اليوم؟ قد تكون البداية عشر دقائق تقرأ فيها القرآن بقلب حاضر، أو ذنباً تبادر إلى تركه، أو صلاة تصلح أداؤها. والمقصود أن تصير معرفتك بداية عمل، لا مادة جديدة تلوم نفسك بها ثم تضعها جانباً.

يحبهم ويحبونه

حين تقرأ في القرآن أن الله يحب المحسنين والتوايين والمتطهرين والملتقين، فإن أمامك أبواب عمل ورجاء. لم يترك الوحي تسأل عن محبة الله في فراغ، بل عرفك بأعمال يحبها، وخلق أمر به، وتوبة فتح بابها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۖ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

[المائدة: ٥٤]

في هذه الآية تجتمع المحبة مع صفات تظهر في الناس: تواضع للمؤمنين، وقوة في الحق، وبذل في سبيل الله، وثبات أمام اللوم حين يكون اللوم على طاعته. فمحبة الله لا تجعل القلب معجبا بنفسه، ولا تعطيه شهادة يرفعها على سائر الخلق. إنها تكليف يزداد معه افتقار العبد إلى ربه.

ابن تيمية، قاعدة في المحبة - مقتطف وبيان^٧

«محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات»

في هذا المعنى يصل ابن تيمية المحبة بالاتباع؛ فالذي يحب الله يطلب ما يحبه الله، وأعظم ما يهتدي به إلى ذلك سنة رسوله. وتبقى دعوى المحبة محتاجة إلى عمل يصدقها.

كما يقرر أن الذنوب تنقص من محبة العبد وطاعته، ولا يلزم من وقوع المسلم في كل ذنب أن تنتفي عنه المحبة كلها. وهذا أصل يفتح باب الإصلاح دون أن يهون المعصية: يتوب المقصر، ويجاهد نفسه، ولا يزكيها؛ وينصح برفق وعدل، ولا يتخذ خطؤه ذريعة إلى الحكم على سيرته بما لا يعلم الناصح.

قد يسأل المرء: كيف أعلم أن الله يحبني؟ والذي ينفعه أن يطلب الأسباب التي أخبر الله أنه يحبها، ويرجو القبول، ويخشى التقصير. أما الجزم لنفسه بمقام خاص لا دليل عليه، فليس هو الطريق الذي تصلح به العبودية.

تستطيع أن تسأل سؤالاً أقرب إلى العمل: هل رجعت من ذنب أعرفه؟ هل أصلحت مظلمة أقدر على إصلاحها؟ هل اتقيت الله حين خفي أمري عن الناس؟ هل أحسنت إلى من جعل الله له حقاً عليّ؟ وهذه الأسئلة لا تحيط بالدين، لكنها تنقل دعوى المحبة إلى امتحانها اليومي.

والعبد يخطئ ثم يتوب، ويغفل ثم يذكر. فلا تجعل حديث المحبة مقصوراً على صورة إنسان لم يذنب قط. باب التوبة نفسه من أعظم أبواب الرجاء، وفيه يعلم المقصر أن الطريق لم يغلق ما دام قد بقي له زمن الرجوع.

الطريق الذي دلّ عليه الحبيب

قد يثقل على النفس أن يصحح لها أحد عملاً تحبه؛ لأنها بذلت فيه عاطفة وجهداً، فتتوهم أن السؤال عن صحته اعتراض على صدقها. لكن القلب الذي يريد الله يفرح بأن يعرف الطريق، حتى لو اضطر إلى مراجعة عادة طال ألفه لها.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[آل عمران: ٣١]

في الآية وعد كريم، وطريق واضح إلى هذا الوعد. متابعة الرسول ﷺ باب محبة الله ومغفرته. لذلك يحتاج الحب إلى العلم كما يحتاج إلى الرقة؛ يتعلم كيف يصلي ويدعو ويذكر، وكيف يصحح مقصده، وكيف يؤدي ما عليه من حقوق.

ابن تيمية، العبودية - مقتطف وبيان^٨

«ألا نعبد إلا الله ولا نعبد إلا بما شرع لا نعبد بالبدع».

يجمع هذا الكلام أصلي العبادة: أن يكون المقصود الله، وأن يكون الطريق ما شرعه. فصدق النية لا يجعل كل عمل عبادة صحيحة، كما أن موافقة الصورة للسنة لا تغني عن الإخلاص.

ويبين ابن تيمية أن اتباع الرسول ﷺ يتضمن تصديق خبره وطاعة أمره، وأن التوكل والعبادة لله وحده. أما محبة الرسول وطاعته فمما أمر الله به، وبذلك يستقيم الجمع بين تعظيمه وإفراد الله بما يختص به من العبادة.

وربما عرفت إنساناً كثير القراءة في أحوال القلوب، ثم وجدته يؤخر حقاً واضحاً لأهله أو يتهاون في أمانة عمله. هذا موضع يحتاج إلى إصلاح، مهما حسنت العبارات التي يقولها. وما قيمة معرفة الطريق إذا بقيت القدم مصرة على مفارقتها؟

ومن لطف السنة أنها تراعي الطاقة، وتدل على الاستمرار، وترد الغلو إلى الاعتدال. ففي هدي النبي ﷺ تقوم العبادة مع حق البدن، وتقوم النوافل مع الفرائض، ويقوم ذكر الآخرة مع عمارة الواجبات في الدنيا.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر

أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ﷺ فقال «أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»

صحيح البخاري، الحديث ٩٠٥٠٦٣

لا يلزمك أن تبتدع مشقة كي تثبت محبتك. اصدق في العمل الذي كلفت به، وأحسن ما تستطيع، واسأل عما يلتبس عليك. وقد يكون باب قربك اليوم أن تصلح صلاة، أو ترد أمانة، أو ترفق بوالد، أو تستغفر من ظلم.

خوف ورجاء يحفظان المحبة

حين يخاف الطفل فقد من يحب، قد يضطرب حتى يسيء فهم كل كلمة. والعبد يحتاج أن يعرف ربه بالوحي، حتى لا يحمل على عبادته تصورات البشر الناقصة. الله واسع الرحمة، شديد العقاب، يقبل التوبة، ولا يظلم أحداً. وتلقي هذه المعاني مجتمعة أصل في صلاح القلب.

﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[الحجر: ٤٩]

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

[الحجر: ٥٠]

من فتح لنفسه باب الأمان حتى هانت عليه المعصية احتاج إلى ما يوقظه. ومن حمل ذنبه على اليأس من رحمة الله احتاج إلى ما يرده إلى الرجاء والتوبة. وفي الحالين يحتاج إلى الصدق؛ فالخوف النافع يدعو إلى الاستقامة، والرجاء النافع يحرك إلى طلب المغفرة والعمل.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{١٠}

«والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل. ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و "الرجاء" يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.»

يفرق ابن القيم بين رجاء المحسن ثواب عمله، ورجاء المذنب التائب مغفرة ربه، وبين أمانى من يصر على الخطأ ولا يريد الرجوع. الأولان رجاء يحرك صاحبه، والثالث غرور يسكن ضميره وهو مقيم على ما يضره.

وللقلب في طريقه نظران يجتمعان: ينظر إلى تقصيره فيحذر، وينظر إلى سعة رحمة الله فيرجو. فلا يحمل عمله على الأمن من الحساب، ولا يحمل ذنبه على القنوط من المغفرة. فإذا صح هذا التوازن استطاع أن يقول: أخطأت، وسأتوب؛ وأن يقول: وفقت، وأسأل الله القبول.

وفي «رياض الصالحين» عقد النووي باباً للجمع بين الخوف والرجاء. وهذا الجمع يحفظ للقلب توازنه: فلا يأمن العبد على نفسه اغتراراً بعمله، ولا يستعظم ذنبه على مغفرة ربه إذا صدق في التوبة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»

صحيح مسلم، الحديث ١١٠٢٧٥٥

قد تذكر ذنباً قديماً فيؤلمك، فاجعل ألمك سبباً لاستغفار وعمل صالح وإصلاح ما بقي من آثاره. وقد يعجبك عمل عملته، فاحمد من وفقك إليه، وأسأله أن يتقبله، ولا تتحول فرحتك بالطاعة إلى احتقار للمقصرين.

الباب ٢

وليتك ترضى

حين يتعارض الرضيان

أكثر أيامك لا يطلب منك الناس فيها معصية صريحة. يريدون وقتك واهتمامك واحسانك، وفي كثير مما يريدونه أبواب خير تؤجر عليها. لكن قد تأتي لحظة تعرف فيها أن موافقة من تحب تعني مخالفة ما أمرك الله به. هنا ينتقل الكلام عن المحبة إلى موقف يختبرها.

قد تكون شهادة يطلب منك تغييرها، أو حقاً يراود منك كتمانها، أو مალأ تعرف أنك لا تستحقه. وربما لم تكن في الموقف بطولة يصفق لها أحد؛ مجرد كلمة هادئة تقولها، ثم تحمل ما بعدها، وتبقى حريصاً على العدل والرفق.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

[التوبة: ١١٩]

ومن أصدق القصص التي تعلمنا ثمن الصدق قصة كعب بن مالك رضي الله عنه. نسمعها من روايته، كما أوردها النووي في باب التوبة، فيظهر فيها اعترافه بتقصيره، وثقل الانتظار، ثم فرج التوبة. لم يصنع لنفسه عذراً يرضي به الناس ويخالف حقيقة ما كان:

قال كعب بن مالك رضي الله عنه، في حديث توبته:

لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدا تخلف، عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وري بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي أنا قادر عليه.

فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أ حزني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك «ما فعل كعب».

فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله، حبسه برداه ونظره في عطفه. فقال معاذ بن جبل بئس ما قلت، والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ. قال كعب بن مالك فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرنى همي، وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا وأستعنت على ذلك بكل ذي رأى من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه،

ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فحجته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال «تعال».

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي «ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك». فقلت بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسنخك على، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». فقامت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد قالوا نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقليل لهما مثل ما قيل لك.

فقلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما إسوة، فضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحبنا فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلى، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته.

فقال الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار، قال فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلى كتابا من ملك غسان، فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة،

فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء. فتيممت بها التنور فسجرت به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعزلها ولا تقربها.

وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال «لا ولكن لا يقربك». قالت إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كلمت لنا نحسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح نحسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت على نفسي، وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته يا كعب بن مالك، أبشر.

قال نخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلى رجل فرسا، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشري نزعت له ثوبى، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجا فوجا يهنوني بالتوبة، يقولون لتهنك توبة الله عليك. قال كعب حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صاحفني وهناني، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك».

قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال «لا، بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله. قال رسول الله ﷺ «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قلت فإني أمسك سهمي الذي بخير، فقلت يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين

أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا تكذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين﴾ إلى قوله ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم﴾ إلى قوله ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾.

قال كعب وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله ﷻ ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه

صحيح البخاري، الحديث ١٢٠٤٤١٨

تطول القصة لأن الطريق الذي تصفه لم يكن خاطرة عابرة. وفيها أن الصدق لا يعفي صاحبه دائماً من ألم العاقبة العاجلة، لكنه يخرج من كذب يزيد جرحه عمقاً. ولا يقاس كل موقف بقصة كعب من جميع الوجوه؛ إنما نتعلم منها تعظيم الصدق، والرجوع من الذنب، والثبات على التوبة.

حين تنتهي من قراءتها، لا تبحث عن امتحان يشبه امتحانه. انظر إلى الحقيقة الصغيرة التي تؤجل الاعتراف بها، وإلى العذر الذي تعتاده مع علمك بخلافه. ربما كان أول نصيبك من هذا الباب أن تقول: أخطأت، ثم تعمل لإصلاح خطئك.

ما لا يقوله المديح

يسهل أن تعرف أثر كلمة جارحة، ويصعب أحياناً أن تعرف أثر كلمة مادحة. الذم يؤلمك فتنبه إليه، أما المدح فقد يدخل في سكينه ويقيم في نيتك، حتى يصبح حضور الناس شرطاً خفياً لنشاطك.

ليس كل سرور بثناء رياء. سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، فسمى ذلك بشراً عاجلة للمؤمن. لكن بين فرح يأتي تابعا للعمل وبين عمل نشأ من طلب الثناء فرق يحتاج إلى صدق مع النفس.

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال:

قيل لرسول الله ﷺ أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال «تلك عاجل بشرى المؤمن»

صحيح مسلم، الحديث ١٣٠٢٦٤٢

قد تبدأ العمل لله، ثم تجد قلبك يترقب ذكر اسمك أكثر مما يترقب تمام النفع. هنا لا يلزم أن تهدم العمل أو تترك بابه، بل أن تعالج قصدك وأنت تمضي فيه. تذكر من وفقك، ومن أعانك، ومن ستر ما تعرفه من نقصك، ومن يملك القبول الذي لا يصنعه كلام الناس.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{١٤}

«لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوث»

يتناول ابن القيم المحبة التي تجعل ثناء الناس غاية للعمل، والطمع الذي يبيع به صاحبه قصده. ولا يعارض ذلك ما سبق في الحديث من السرور بثناء جاء بعد عمل لم يطلب به صاحبه الثناء.

ولا يراد من هذه المحاسبة أن يعيش الإنسان متهمًا كل فرح في قلبه، أو أن يطارد خواطره حتى يعجز عن الخير. المقصود أن يعرف وجهته، وأن يرد قلبه كلها مال. النية تحتاج إلى رعاية، كما يحتاج العمل إلى إتقان.

قد لا يعرف الناس تضحية أخفيها، وقد يمدحونك على شيء كنت فيه أقل إخلاصًا مما ظنوا. فدع لهم ما ظهر، وأصلح ما بينك وبين الله. لا تحمل إليهم كل صفحة من سيرتك لتصنع صورة مكتملة، ولا تجعل غياب الثناء دليلًا على ضياع جهدك.

لك وحدك

قد يقوم رجلان بالعمل نفسه، ثم يكون ما بين قلوبهما بعيداً. صورة العمل واحدة، لكن أحدهما يطلب بها وجه الله، والآخر يريد بها منزلة عند الناس. ولهذا يبدأ إصلاح العبودية من موضع لا تراه العيون.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«الأعمال بالنية، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»

صحيح البخاري، الحديث ١٥٥٤

يعيدك الحديث إلى عملك اليومي. ما الذي تقصده بتعليم ولدك، وبذل مالك، وحفظ لسانك، وإتقان مهنتك؟ تستطيع أن تحتسب في المباح ما يعين على طاعة أو حق، دون أن تغير أحكام الأعمال بأمنياتك؛ فالنية الحسنة لا تبيح طريقاً محرماً.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾

[الزمر: ٢]

افتتح النووي «رياض الصالحين» بالإخلاص وإحضار النية في الأعمال الظاهرة والخفية. يذكّرنا هذا التقديم بأن قوة الحركة تحتاج إلى صدق الوجهة.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{١٦}

«فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب. وحقيقة الصدق: توحيد الطلب والإرادة. ولا يثران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة.»

المطلوب هو من تقصد بعملك، والطلب هو صدق توجهك وبذلك. فقد تعرف الغاية ثم تفر عن الطريق، وقد تنشط في الطريق ويخالط قصدك طلب المنزلة عند الناس. يجمع الإخلاص والصدق هذين الجانبين، وتضبطهما متابعة الرسول ﷺ.

لا تقل: سأخلص حين تكبر أعمالي. إن أول مواضع الإخلاص ما أنت فيه. حين تعيد مبلغاً وصل إليك خطأ، وحين تنصف من تختلف معه، وحين تتم عملاً لا يراك صاحبه، فأنت تقف عند باب من هذا المعنى.

وقد يفتح الله للمرء عملاً صغيراً يصدقه فيه، فيكون أنفع لقلبه من عمل كبير أتعبه التطلع إلى الخلق. ونحن لا نجزم بمقادير الأجور لأشخاص بأعيانهم، لكننا نعرف أن الله يعلم السر، وأن قدر العمل عنده لا تحيط به أعين الناس.

باب لا يراه الناس

للعمل الخفي أثر في تربية القلب؛ لأنه يدربك أن تستمر حيث لا ينتظرك ثناء. قد يكون نفقة لا تذكرها، أو دعاء لأحد، أو إحساناً إلى والد، أو كفاً عن معصية تهيأت أسبابها.

ومن السنة قصة ثلاثة آواهم المبيت إلى غار، فأنحدرت صخرة فسدت عليهم بابه. توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم، وذكر كل واحد منهم عملاً احتسبه له. نقرأ القصة بتمامها؛ ففي تفاصيلها معنى الإخلاص حين يغيب الجمهور، والوفاء حين يقدر الإنسان على خلافه:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ:

«انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه، فأنحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. فقال رجل منهم اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي في طلب شيء يوماً، فلم أرح عليهما حتى ناما، فخلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدرح على يدي

أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج».

قال النبي ﷺ «وقال الآخر اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت لا أحل لك أن تفرض الخاتم إلا بحقه. فتخرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبي ﷺ وقال الثالث اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلى أجري. فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي. فقلت إني لا أستهزئ بك. فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»

العَبْقُوقُ: شراب المساء، والنأي: البعد.

في هذه الأعمال بر، وعفة، وأمانة. ثلاثة أبواب نتصل بحياة الناس اتصالاً مباشراً. فلا ينحصر صدق القلب في لحظة انفراد بالمصلى؛ قد يظهر في حفظ مال عامل، أو في رعاية الدين، أو في تراجع عن حرام مع شدة الداعي إليه.

وقد يطلب منك الإخلاص أن تتحدث بعملك إذا تعلق به تعليم أو تنظيم أو حق للآخرين. ليس إخفاء كل شيء غاية مستقلة، كما أن إعلان كل شيء ليس ضرورة. تنظر فيما يصلح العمل والقصد، وتستعين بالله على آفة طلب المنزلة.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{١٨}

«الإيمان له ظاهر وباطن وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته»

يصل ابن القيم صلاح الداخل بما يظهر على الجوارح. فالنية الصالحة تدعو إلى العمل، والعمل يحتاج إلى قلب يصدقه. وما يقع من عجز أو إكراه له حكمه، فلا يقاس بالمقدور الذي يتركه صاحبه مع قدرته عليه.

اجعل لنفسك نصيباً من خير تستطيع المداومة عليه. لا تحتاج إلى إعلان عهد جديد أمام الناس، ولا إلى أن تسميه مقاماً عظيماً. يكفي أن تصدق فيه، وأن تحذر من العجب به، وأن تعرف أن الله هو الذي أعانك عليه.

ثم تذكر أن الخفاء لا يبيح التفريط في العمل المشهود الذي وجب عليك. إن الصلاة المفروضة والأمانات والحقوق أولى بالرعاية. والسريرة الصالحة ينبغي أن تزيدك وفاء بما يلزمك، حتى إذا جاءت المساومة وجدتك ثابتاً.

لا تساوِم على قلبك

قد تبدأ المساومة صغيرة: تجاوز عن هذا الكذب حتى تبقى العلاقة، أو وافق على هذه المخالفة حتى لا تتعطل المصلحة. ثم إذا اعتاد القلب أن يشتري القبول بما لا يرضي الله، صار الرجوع أشق عليه.

ولا يعني الثبات أن تصنع خصومة حيث تستطيع البيان، أو أن تختار أشد الألفاظ لتثبت أنك لا تخاف اللوم. قد يكون الرفق أحفظ للحق، وقد يحتاج الموقف إلى سؤال أهل العلم لتعرف حقيقة التعارض. لكنك متى عرفت حكم الله لم تجعل غضب الناس حجة لمخالفته.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{١٩}

«إيثار رضا الله عز وجل على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق.»

هذا هو الموضع الذي أورد فيه ابن القيم أبيات «وليتك ترضى». ومعناه أن رضا الناس لا يقدم على أمر الله حين يتعارضان، وأن القلب يحتاج في هذا الاختيار إلى الصبر وقوة المحبة وحسن الاستعانة.

ويذكر أن ملاحقة رضا الجميع مطلب لا ينتهي. تختلف رغباتهم، وقد يرضى بعضهم بما يسخط غيره؛ أما حق الله فيطلب بعلم، ثم يؤدي بعدل. فإذا لحقك في سبيل ذلك أذى، فلا تجعل الأذى دليلاً على أن اختيارك كان خطأ، ولا تجعل وجود المعارضين شهادة بأن كل ما تفعله صواب.

وفي مقابل ذلك يحذر من شراء الرضا العاجل بمعصية. فقد يمدح الناس مخالفة انتفعوا بها ثم يتركون صاحبها لتناجها، ويبقى هو مسؤولاً عما اختار. والعقل ينظر إلى العاقبة، ويوازن المصالح والمفاسد بميزان الشرع، لا بحدة الانفعال.

ومن المعاني التي يؤكد أنها ألا تكون حياتك معلقة بالثناء. تزهد في المدح الذي يفسد قصدك، وتقبل المشقة اللازمة لأداء الحق، وتحسن الظن بربك. لكن هذا لا يعني طلب الخصومة أو تعمد تعريض النفس للأذى؛ فقد يكون البيان الهادئ والمشورة وطلب البديل المباح من حسن القيام بالدين.

وهكذا نقرأ الآيات بوصفها تعبيراً شعرياً يشرح معنى، ولا نجعلها أصلاً مستقلاً في العقيدة أو الحقوق. فما وافق الوحي قبل معناه، وما احتمل معنى فاسداً بيناه ورددناه إلى الحق.

العبرة الشعرية تحتاج إلى هذا البيان. معنى «وليتك ترضى والأنام غضاب» أن العبد لا يشتري رضا الخلق بمعصية ربه إذا تعارض الأمران. أما غضب الناس لظلم صدر منه، أو لسوء خلقه، أو لتضييع حقوقهم، فليس مما يتقرب به إلى الله.

وتستطيع أن تحمل هذا المعنى إلى أبسط علاقاتك. تقول الحق، وتختار له وقته ولفظه، وتسمع ما عند الطرف الآخر، وتعتذر عما أخطأت فيه، ثم لا تعتذر عن واجب شرعي بأن تتركه.

وقد تخاف وأنت تثبت، وقد تحزن لما فقدت. لا تجعل وجود المشقة نفياً لصدقك. اسأل الله أن يعينك، واطلب الصحبة النافعة والمشورة، وخذ بالأسباب التي تحفظ عليك دينك ومعاشك. إنك عبد تجاهد، لا تدعي لنفسك استغناء عن العون.

رضوان لا يعقبه سخط

كل رضا بشري تعرفه معرض للتغير. قد يرضى عنك إنسان اليوم ثم يغضب غداً؛ لسوء فهم، أو لتبدل مصلحة، أو لضعف في نفسه ونفسك. أما أهل الجنة فقد أخبر النبي ﷺ بما يمنحهم الله من رضوان لا يأتي بعده سخط.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة. فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك. فيقولون يا رب وأى شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»

صحيح البخاري، الحديث ٢٠٧٥١٨

هذا الرجاء يوسع أفق القلب. لا يحصر غايته في نجاة عاجلة أو ثناء حاضر، بل يطلب رضوان ربه في الدار التي أعدها لأوليائه. ويعرف أن النعيم الذي وعد الله به عباده حق، وأن السؤال عنه والرجاء فيه من هدي الإيمان.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

[التوبة: ٧٢]

وفي هذا الموضع يتعلم العبد أن أعمال القلوب متصلة بآلها. إنه يرجو أن تلقاه ثمرة صبره وصدقه، ويعلم أن دخوله الجنة بفضل الله ورحمته. فلا يدعي أن عمله ثمن يستغني به عن العفو، ولا يترك العمل بحجة افتقاره إلى الفضل.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{٢١}

«ومن أعظم أسباب حصول الرضا: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه.»

يجمع ابن القيم في منزلة الرضا بين الرضا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، وبين الحديث عن الرضا بما يقدره الله من المصائب. وينبغي تمييز هذين البابين: قبول دين الله والانقياد له أصل لازم، أما طمأنينة النفس إلى المصيبة فوق الصبر الواجب ففي حكمها خلاف ينقله، ويختار استحبابها.

فليس معنى هذا الخلاف أن للإنسان أن يتسخط على الله أو يرفض حكمه الشرعي. الواجب أن يحفظ لسانه وعمله من المحرم، وإن بقي في نفسه ألم طبيعي يحتاج إلى مواساة. والدمعة التي لا يصحبها اعتراض لا تنقض الصبر.

ويشرح الرضا بالله من جهة المحبة والتوكل والثقة، والرضا برسوله من جهة قبول هديه والتحاكم إلى ما جاء به، والرضا بدينه من جهة التسليم لحكمه. ولا يحول التسليم دون سؤال العالم عما أشكل، ولا دون تعلم الدليل؛ إنما يحول دون جعل الهوى حاكماً على الوحي.

كما يبين أن للرضا أسباباً يباشرها العبد، وأن تمام ثمرته فضل من الله. نتعلم، وتجاهد نفسك، وتدعو، وتأخذ بسبب الفرج، ثم لا تدعي بلوغ مقام لا تعلمه من نفسك. وليس طلب الشفاء أو دفع الظلم رفضاً للقدر؛ فقد جاءت الشريعة بهذه الأسباب.

النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - مقتطف وبيان ٢٢

«معنى رضيت بالشيء قنعت به واكتفيت به ولم أطلب معه غيره»

ينقل النووي هذا التفسير عن صاحب «التحري»، ثم يشرح أن من رضي بالله والإسلام والرسول ﷺ لم يطلب ديناً يخالف هديه. والمقصود قبول الحق واتباعه، لا استغناء الإنسان عن الرزق أو العلاج أو العلم الذي يحتاج إليه.

وينقل عن القاضي عياض أن هذا الرضا دليل على رسوخ المعرفة وطمأنينة الإيمان في القلب. فإذا عرفت من تعبد، وعرفت الطريق إليه، صار قبول أمره أقرب إلى نفسك، وإن بقيت بعض التكاليف محتاجة إلى مجاهدة.

إذا عدت إلى مشقة يومك بعد هذه القراءة، فقد تبقى المشقة كما هي، لكنك تعرف ما ترجو وراءها. ترد مألًا لا يحل لك، وتغالب كلمة ظلم، وتستمر في أمانة ثقيلة؛ وأنت تسأل الله أن يرضى عنك، لا أن يجعل الناس كلهم راضين عن كل اختيار لك.

الباب ٣

والحياة مريرة

الذي تبكي أمامه

قد تضيق بك العبارة حين يسألك أحد عما بك. تعرف أن الكلام لن يرد الغائب، ولن يغير الخبر الذي جاءك، فتسكت، ثم يفيض ما حاولت جمعه. وليس كل بكاء اعتراضاً، ولا كل حزن نسياناً لرحمة الله.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[يوسف: ٨٦]

يخبر القرآن عن يعقوب عليه السلام وهو يبتش شكواه إلى الله. وفي هذا الباب تجد للمؤمن موضعاً يشكو فيه فقره وضعفه وألمه، دون أن يتهم ربه أو يسيء الظن بحكمته. ومن فرق بين الشكوى إليه والتسخط عليه، استطاع أن يدعو بصدق، وأن يعرف موضع قلبه من حزنه.

ولما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ دمعت عيناه، وبين أن العين تدمع والقلب يحزن، وأن القول يبقى منضبطاً بما يرضي الله. تلك رحمة نبوية لا يستحي المؤمن أن يتعلم منها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين وكان ظئراً لإبراهيم عليه السلام فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأنت يا رسول الله فقال «يا ابن عوف إنها رحمة». ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»

صحيح البخاري، الحديث ٢٣٠١٣٠٣

القَيْن: الحداد. وظئِر إبراهيم: زوج مرضعته. وتذرفان: تسيل دموعهما.

قد تحتاج مع الدعاء إلى من يسمعك، وإلى من يعينك على عبء يومك، وإلى علاج لما أصاب بدنك أو نفسك. طلب المساعدة الصادقة لا يقدر في التوكل. وإنما تحفظ قلبك من أن تجعل شكواك اتهاماً لله، أو أن تتخذ ألمك إذناً لظلم الآخرين.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{٢٤}

«وأما إنه من منازل الطريق فلا، والله سبحانه أعلم».

يناقش ابن القيم الحزن بوصفه حالاً يطرأ على الإنسان، ويفرق بين وقوعه وبين تعمد طلبه. فمن حزن على مصيبة ثم صبر، رجا أجر الصبر وتكفير السيئات؛ ولا يلزم من ذلك أن يبحث عن الحزن أو يستبقه ليكون أقرب إلى الله.

ويبين أن الدموع على فوات الخير قد تدل على صدق الرغبة فيه، كما في الذين لم يجدوا ما يحملهم إلى الجهاد. فالممدوح هو الإيمان الذي ظهرت علامته، لا الألم مجرداً. وكذلك الندم على الذنب يحمل إلى التوبة، فإذا أثمر إصلاحاً لم يحتج العبد إلى إدامة جرحه ليبرهن على صدقه.

ولا يعني هذا ذم كل حزن أو لوم المصاب على ما لا يملكه. قد يحزن المؤمن مع تمام محبته لله، وقد يحتاج إلى علاج ومساندة ووقت. إنما يحفظ مما يستطيع قوله وفعله، ولا يجعل الحزن شرطاً للإيمان، ولا غيابه شهادة على قسوة القلب.

لا تستعجل قلبك بعبارات تطلب منه أن ينسى فوراً. قد يبقى أثر الفقد، وتأتي الذكرى على غير موعد، ثم تتعلم كيف تعيش وأنت تحملها. المهم أن تصون ما تستطيع صونه من قولك وعملك، وأن تسأل الله الرحمة والثبات.

ومن لطف المواساة أن نعرف ما نقوله للمصاب. فبعض الكلمات يزيد العبء لأنه يطالبه بصورة فوق طاقته. أما كلمات النبوة فترده إلى ربه، وتدعوه إلى الصبر والاحتساب، من غير إنكار لما يجد.

إن لله ما أخذ

عندما يصيب الفقد بيتاً، تتغير معاني الأشياء الصغيرة. مقعد خال، وصوت لا يعود، وموعد كان يتكرر ثم انقطع. وحينئذ يحتاج القلب إلى كلمة تعرف قدر مصيبتة، وتذكره بمن إليه المرجع.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال:

أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابنا لي قبض فائتنا. فأرسل يقرئ السلام ويقول «إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب». فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عباد ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتعقعق قال حسبته أنه قال كأنها شن. ففاضت عيناه. فقال سعد يا رسول الله ما هذا فقال «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»

صحيح البخاري، الحديث ٢٥٠١٢٨٤

تتعقعق: تضطرب وتسمع لها حركة عند خروج النفس. والشن: القربة الخلققة.

إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى. هذه الكلمات تعيد الملك إلى صاحبه، والوقت إلى علمه، والعبد إلى عبوديته. لا تقول إن من فقدته لم يكن عزيزاً، بل تعلمك أن عزته في قلبك لا تخرجه من ملك الله.

ومن أخبار البيوت المؤمنة قصة أم سليم رضي الله عنها في موت ولدها، وما كان بينها وبين أبي طلحة. وهي قصة ثابتة، نقرأها بما ورد فيها، ونتعلم منها الصبر وحسن التصرف، دون أن نجعل أسلوباً معيناً في تلقي المصيبة تكليفاً عاماً لكل الناس:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه - قال - فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب - فقال - ثم تصنعت له أحسن ما كان تصنع قبل ذلك فوقع بها فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت يا أبا طلحة أرايت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم قال لا. قالت فاحتسب ابنك. قال فغضب وقال تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتني بابني. فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان فقال رسول الله ﷺ «بارك الله لكما في غابر ليلتكما».

قال فحملت - قال - فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقا فدنوا من المدينة فضر بها المخاض فاحتبس عليها أبو طلحة وانطلق

رسول الله ﷺ - قال - يقول أبو طلحة إنك لتعلم يا رب إنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج وأدخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى - قال - تقول أم سليم يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أجد انطلق. فانطلقنا - قال - وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاما فقالت لي أمي يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ - قال - فصادفته ومعه ميسم فلما رأيته قال «لعل أم سليم ولدت». قلت نعم. فوضع الميسم - قال - وجئت به فوضعت في حجره ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة فلاكها في فيه حتى ذابت ثم قذفها في في الصبي فجعل الصبي يتلمظها - قال - فقال رسول الله ﷺ «انظروا إلى حب الأنصار التمر». قال فمسح وجهه وسماه عبد الله

صحيح مسلم، الحديث ٢١٤٤. ٢٦

الميسم: أداة الوسم. والتحنيك هنا ذلك حنك الصبي بالتمر الممضوغ.

للناس قوى متفاوتة، وللمصائب أحوال مختلفة. قد يثبت أحدهم ظاهراً وهو شديد التألم، وقد يبكي آخر ويبقى قوله وعمله على الطاعة. فلا تزن صدق القلوب بحركة واحدة رأيها، ولا تحاكم كل مبتلى إلى ما استطاعه غيره.

وإذا كنت مع صاحب مصيبة، خفف عنه ما تستطيع: طعاماً، أو قضاء حاجة، أو مساعدة في شأن يثقل عليه. وقد تكون المواساة عملاً صامتاً يحفظ له حق الحزن ولا يتركه وحده مع جميع أعبائه.

ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين - مقتطف وبيان^{٢٧}

«وهذا ونحوه من القول الذي ليس فيه تظلم للمقدور ولا تسخط على الرب ولا استخاط له فهو كمجرد البكاء»

يفصل ابن القيم بين دمع العين وحزن القلب، وبين النياحة والتسخط والقول المحرم. وقد ثبت في الأحاديث المتقدمة بكاء النبي ﷺ، وقوله عند موت إبراهيم ما يرضي الله. فلا تجعل الرحمة نقصاً في الصبر، ولا تحمل المصاب على جمود لا يطيقه.

ويعرض اختلافاً فقهياً في بعض صور البكاء، ثم يرجح جواز البكاء الذي لا تصحبه نياحة. والمقصود العملي واضح: تحفظ لسانك من الاعتراض، ويدك من فعل محرم، وتبقى لك دمعتك وحزنك ودعاؤك لمن فقدت.

أما حديث تعذيب الميت ببكاء أهله فله عند أهل العلم وجوه في الجمع بينه وبين عدل الله وألا يحمل أحد وزر غيره؛ ومن تفسيراته ما يتصل بالنياحة التي تسبب فيها الميت أو رضي بها، ومن العلماء من حمل التعذيب على التألم لا العقوبة بذنب الغير. فلا يقال للمصاب إن مجرد دموعه تعاقب ميته، ولا يجزم بحال ميت بعينه من غير بينة.

ليس المطلوب أن تتحول عند الفقد إلى جسد لا يشعر، بل أن تبقى عبداً لله في شعورك وقولك وعملك. ومن هذا الموضع يفتح باب الدعاء؛ فالصبر لا يغلقه، والرضا بالله لا يمنعك أن تسأله كشف الضر.

لا يزال للدعاء مكان

قد يظن المبتلى أن تكرار سؤاله الفرج نقص في رضاه، فيمنع نفسه من الدعاء الذي تحتاج إليه روحه. لكن أنبياء الله سألوا ربهم كشف الضر، وأخبرنا القرآن عن دعائهم، لتعلم كيف نفتقر إليه.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

[الأنبياء: ٨٣]

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَكَّشْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَبِيدِ﴾

[الأنبياء: ٨٤]

في دعاء أيوب عليه السلام اعتراف بالضر وثناء على رحمة الله. لا تكلف فيه لوصف المشهد، ولا ادعاء لاستحقاق العطاء. ومن فقه الدعاء أن تعرف أنك تسأل رباً رحيماً، وأن حاجتك مهما عظمت لا تعجزه.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٢٨}

«جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه»

يربط ابن القيم دعاء أيوب عليه السلام بمعرفة رحمة الله والافتقار إليه. فيعترف الداعي بحاجته، ويتوسل إلى ربه بما ثبت من صفاته، ولا يزعم أن لنفسه حقاً يفرض به وقت الإجابة وصورتها.

ادع بما تحتاج إليه من خير الدنيا والآخرة. اسأل الشفاء والرزق والهداية والعفو، وخذ بالأسباب المباحة، ولا تجعل الدعاء موعداً تفرضه على القدر. قد تؤخر عنك حاجة ولا تعلم ما وراء تأخيرها، لكنك تعلم أن الله يسمع دعاءك، وأنه لا يظلمك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل». قيل يا رسول الله ما الاستعجال قال «يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»

صحيح مسلم، الحديث ٢٧٣٥. ٢٩

يستحسر: ينقطع عن الدعاء من التعب واليأس.

وحين يطول الانتظار، قد تحتاج إلى تجديد معنى العبادة في قلبك. أنت تدعو لأن الله أمرك بالدعاء، ولأنك فقير إليه، ولأن رحمته واسعة. لست تعقد معه معاملة تشترط فيها أن يقع المطلوب بالصورة التي رسمتها، ثم تنقطع إن لم يقع.

وهذا لا يعني أن تمتنع عن مراجعة سبب قصرت فيه، أو عن تغيير وسيلة ثبت خطؤها. قد يكون من تمام الاستعانة أن نتعلم، وتستشير، وتطلب العلاج، وتحسن ترتيب شؤونك. الدعاء والعمل يجتمعان في قلب يعرف ضعفه ويصدق في طلب العون.

العافية التي نرجوها

حين تقرأ أخبار الصابرين قد تعجب بثباتهم، ثم تتنّى امتحاناً يريك من نفسك مثل ما رأيت منهم. ولكنك لا تعرف قوتك إذا نزل الأمر، ولا تحتاج إلى طلب البلاء كي يفتح لك باب الطاعة.

جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ عاد رجلاً قد بلغ به المرض مبلغاً شديداً، فسأله عما كان يدعو به. وكان قد سأل تعجيل ما يستحقه من العقوبة في الدنيا، فعلمه رسول الله ﷺ الدعاء بخير الدنيا والآخرة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه». قال نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فجعله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ «سبحان الله لا تطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت اللهم آتني في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». قال فدعا الله له فشفاه

صحيح مسلم، الحديث ٣٠٢٦٨٨

إن العافية نعمة تستحق الشكر، وليست علامة على أنك لم تبلغ طريق أهل الإيمان. فيها تعمل وتصل وتبر وتعلم وتنب. وقد تكون مجاهدة النفس في الرضاء أشد خفاء من صبر ظاهر على مرض، فلا يحتقر العبد نعمة لأنه لم ير حولها قصة مؤثرة.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[البقرة: ٢٠١]

ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين - مقتطف وبيان^{٣١}

«وبالجملة فالصبر على الواجب واجب، وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب، وعليه حرام.»

يقسم ابن القيم الصبر بحسب ما يصبر الإنسان عليه أو عنه؛ فليس كل احتمال للألم محموداً. يلزم المسلم أن يصبر على أداء الواجب، وعلى ترك المحرم، وعلى المصيبة التي لم يخترها. ويستحب له أن يصبر على النوافل، وعن المكروهات، وأن يعفو حيث يكون العفو محموداً.

وقد يصير الصبر ممنوعاً إذا كان امتناعاً عن إنقاذ النفس من الهلاك مع القدرة، أو تركاً لواجب باسم الزهد والتحمل. وما كان وسيلة إلى ضرر معتبر أو تضييع حق لا يصير فضيلة لمجرد مشقته. وتفصيل الضرورة ودفع الاعتداء لها أحكامها التي لا تحتزل في شعار واحد.

قد يقال لمظلوم: اصبر، ويراد منه أن يسكت عن حق يجب حفظه، أو أن يترك من تحت يده عرضة للأذى. وهذا يحتاج إلى تفصيل وعدل؛ فالصبر المشروع يجتمع مع دفع الظلم بالوسائل المشروعة، ومع طلب النجاة والعلاج.

أحمد الله على العافية، وأسأله دوامها، وأحسن استعمالها. وإذا نزل بك ما تكره، فلا تطلب من نفسك كل مراتب الصبر في لحظة واحدة؛ ابدأ بما يجب عليك الآن، واستعن بربك عليه.

الصبر الذي تستطيعه

قد تكون أمامك ساعة ثقيلة، ولا تحتمل أن تفكر في أعوام كاملة. يكفيك أن تسأل: ما الواجب عليّ في هذه الساعة؟ أي قول أحفظ لساني عنه؟ وأي عمل لا ينبغي أن أتركه؟ ومن يستطيع أن يعينني؟

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال «اتقي الله واصبري». قالت إليك عني، فإنك لم تصب بمصیبتی، ولم تعرفه. فقيل لها إنه النبي ﷺ. فأنت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت لم أعرفك. فقال «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»

صحيح البخاري، الحديث ٣٢٠١٢٨٣

في الحديث تربية على رعاية أول اندفاع النفس. لكن من فاته كمال الصبر عند البداية لا يغلق عليه باب التوبة والإصلاح. يرجع مما أخطأ فيه، ويجتهد في بقية الطريق، ولا يجعل عثرته الأولى ذريعة إلى عثرات أخرى.

ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين - مقتطف وبيان ٣٣

«فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية»

يبين ابن القيم أن الصبر قد يكون خلقاً راسخاً، وقد يبدأ بتكلف وتدريب؛ وهذا هو التصبر. فإذا تكرر احتمال النفس لما ينبغي احتماله، صار ضبطها أيسر وأثبت. واكتساب الخلق متفاوت: فمن الناس من يرجع إلى عادته عند أول باعث، ومنهم من يقوى تمرنه حتى يستقر له خلق جديد.

والاصطبار أبلغ في الثبات، والمصابرة مقاومة من يواجهك في ميدان الصبر، والمرابطة لزوم الثغر وحراسته. ويستأنس ابن القيم بهذا المعنى في حراسة القلب من الهوى؛ فلا يكفي أن تنتصر مرة ثم تترك منافذ الضعف مفتوحة.

وتجمع آية آل عمران هذه المعاني مع التقوى [آل عمران: ٢٠٠]. فقد يحتمل الإنسان ويتصلب، ولكنه يريد غلبة خصمه أو إرضاء كبريائه. إنما يثمر الصبر فلاحاً حين يهديه قصد صحيح وعمل مشروع. ومن لم يجد الصبر سهلاً في أول الطريق لم يغلق الباب في وجهه؛ يبدأ بالمجاهدة ويستعين بالله.

ثم بين حاجة العبد إلى الصبر في أحواله كلها، حتى في النعمة التي يحتاج إلى حفظ حق الله فيها:

ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين - مقتطف وبيان^{٣٤}

«الصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين، ولا يستغنى أحدهما عن صاحبه.»

يرى ابن القيم أن الصبر يصحب الإنسان في السراء والضراء. ففي النعمة يصبر عن الاغترار والبطر، وعن الاسترسال الذي يقلب اللذة ضرراً، ويؤدي حق الله فيها، ويحفظها من الاستعمال المحرم. ولهذا قد يكون ضبط النفس عند القدرة أشق من ضبطها حين لا تجد ما تشتهي.

وللطاعة صبر قبلها، وصبر في أثناءها، وصبر بعدها. قبلها يصحح النية ويعزم؛ وفيها يتم العمل ويحضر قلبه مع ربه؛ وبعدها يحفظه من المن والأذى والعجب. فلا ينتهي امتحان الإخلاص بانتهاء العبادة. وفي ترك المعصية يعينه قطع العوائد والأسباب والصحبة التي تجره إليها؛ فإن اجتماع العادة والشهوة يجعل المقاومة أثقل.

وفي المصيبة يبدأ الواجب بالصبر وترك التسخط المحرم، ويعلو العبد بالرضا والشكر، مع بقاء الألم الإنساني. وإذا جاء الأذى من الناس انفتح باب العفو وسلامة الصدر والإحسان، دون أن يسقط حق المظلوم في دفع الضرر وطلب الإنصاف.

ويفرد ابن القيم حالاً يبدأها الإنسان باختياره ثم يعسر عليه الخروج منها، كالتعلق المحرم. فالدواء أن يتوب، ويمنع الأسباب التي تزيد الداء، ويصبر على فراقه. ومن ندم على السبب وصبر لله رجي له الثواب؛ ولا يجوز أن يجعل استمرار المعصية علاجاً لأثرها.

وإذا تعدى أثر الذنب إلى الآخرين لم تكف التوبة الباطنة وحدها مع القدرة على الإصلاح؛ بل يصلح ما أفسده، ويبين الحق الذي حجه، ويرد الحقوق بحسب استطاعته. هكذا يجتمع الصبر مع المسؤولية، فلا يكون عذراً للبقاء على الخطأ.

قد تصبر عن جواب يجرح، أو على عمل شاق لا بد منه، أو على ترك عادة محرمة اشتد ألفها. وكل باب يحتاج إلى معرفة بما يعينك وما يضعفك. ابتعد عما يهيج الفتنة، وخفف ما تستطيع تخفيفه من أسباب الاضطراب، ولا تنجل من الاستعانة بمن يحسن النصح.

الصبر لا يلزمك أن تكتم كل حاجتك. تستطيع أن تقول: تعبت، وأن تطلب عوناً، وأن تبكي، وأنت تحفظ حدود الله. وتستطيع أن ترتاح ثم تعود إلى العمل. حق البدن والنفس جزء من الاستقامة التي تريدها.

ما خفي عنك من الحكمة

نحب أن نجد لكل ألم معنى قريباً، وأن نرى سريعاً الخير الذي جاء بعده. وقد يفتح الله للإنسان من الفهم ما يطمئن به قلبه، وقد تبقى أمور لا يعلم حكمها التفصيلية. فلا نختلق علماً لم يؤتنا الله إياه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢١٦]

يخبرنا القرآن بقصور علمنا، ويذكرنا بعلم الله. وهذا أصل نطمئن إليه، من غير أن نجزم بأن مصيبة معينة نزلت لسبب مخصوص لم يدل عليه دليل. لا يحق لأحد أن يفسر مرض إنسان بأنه علامة سخط، أو فقدته بأنه حكم على باطنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا. ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»

صحيح مسلم، الحديث ٣٥٠٢٦٦٤

في هذا التوجيه النبوي تجتمع المبادرة والاستعانة وترك التحسر الذي يعيد الماضي ولا يصلحه. تعمل قبل وقوع الأمر، فإذا وقع ما لم ترد، راجعت ما ينفعك للمستقبل، ولم تجعل كلمة «لو» باباً دائماً لتعذيب نفسك.

ابن تيمية، قاعدة في المحبة - مقتطف وبيان^{٣٦}

«فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه، ممنوع عند الخير
يخل به.»

يتأمل ابن تيمية وصف الإنسان في القرآن: قد ينسيه الألم نعمة الأُمس، فيظن أن الشدة لن تزول؛ فإذا جاء الرخاء نسي ضعفه، وأمن القلب، ونفر بما أعطي. وهذه أحوال يحذر منها القرآن، وليست حكماً بأن كل إنسان يلزم حالاً واحدة.

وتستثني آيات سورة هود الذين صبروا وعملوا الصالحات [هود: ٩-١١]. فالإيمان يربي ذاكرة القلب: لا تحو المصيبة إحسان الله السابق، ولا تحو العافية حاجتنا إليه. وبهذا يستقيم الرجاء عند الضيق، والتواضع والبذل عند السعة.

ابن تيمية، قاعدة في المحبة - مقتطف وبيان^{٣٧}

«وأما المؤمن فإنه مع قدرته يفعل ما أمر الله به من البر والتقوى دون ما نهى عنه من الإثم والعدوان.»

لا يظهر الصبر في احتمال الحرمان وحده؛ بل يظهر أيضاً حين يقدر الإنسان على ما يشتهي ثم يقف عند حد الله. وقد يملك المرء المال أو المنصب، فيكون امتحانه أن يعدل ولا يبغي، وأن يبذل ولا يمنع، وأن يذكر أن القدرة أمانة.

ويقابل ابن تيمية بين من تقوده أهوائه مع القوة، ويستدله فقدها، وبين المؤمن الذي يستمد من إيمانه سبباً للكف والثبات. والمقصود تربية النفس على البر في الحالين، لا تزكية المرء لنفسه أو احتقار من ضعفت مقاومته. وحين تضيق القدرة يبقى باب الاستعانة بالله والعمل بما يستطيع مفتوحاً.

وقد ميز العلماء بين الرضا بالله ودينه، وبين تفصيل أحوال النفس عند المصيبة، وقرروا وجوب الصبر عن التسخط المحرم. فلا يحمل القارئ نفسه على دعوى أنه لا يجد الماء، ولا يجعل الألم الطبيعي مرادفاً للاعتراض على الله.

الباب ٤

وليت الذي بيني وبينك عامر

موعدك مع الصلاة

للإنسان مواعيد يتيها لها قبل وقتها، وأخرى يزاحمها بما بقي من يومه. والصلاة تستحق أن تعيد النظر في موضعها من حياتك؛ فهي عبادة مفروضة تكرر، تردك من انتشارك إلى وقوفك بين يدي ربك.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

[طه: ١٤]

ليس معنى عمارة الصلة بالله أن تنتظر حالاً وجدانياً نادراً. قد يبدأ الأمر بأن تحفظ وقت الصلاة، وتتعلم أحكامها، وتستحضر ما تقول فيها. وحين يشرد قلبك ترده، وحين تقصر تستغفر، وتواصل المجاهدة دون دعوى أنك بلغت كمال الحضور.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمساً، ما تقول ذلك يبقي من درنه». قالوا لا يبقي من درنه شيئاً. قال «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا»

صحيح البخاري، الحديث ٣٨٠٥٢٨

ابن القيم، الفوائد - مقتطف وبيان^{٣٩}

«للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقاءه.»

يربط ابن القيم العناية بالصلاة بالاستعداد للقاء الله. فمن عظم وقوفه اليومي، وأدى حقه، كان ذلك من أسباب تيسير الموقف الآخر؛ ومن استهان به فوت على نفسه زاداً عظيماً. ويستشهد بالأمر بالسجود والتسبيح، والتحذير من إثارة العاجلة على اليوم الثقيل [الإنسان: ٢٦-٢٧].

فالصلاة موعد متكرر لتصحيح الاتجاه، لا مجرد عمل يضاف إلى الأعمال. ومع كل تكبيرة يستطيع القلب أن يستأنف الصدق، ويعود بعد شروده، ويستعد للقاء ربه بإصلاح ما بينهما وما بينه وبين الناس.

ثم تأمل كيف يشرح عبودية العبد باختلاف ما يعرض له من أحوال، وأن الأفضل يتصل بحق الوقت وما يطلبه الله منه:

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{٤٠}

«فالأفضل في كل وقت وحال إثارة مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.»

يعرض ابن القيم أربعة اتجاهات في طلب أفضل العبادة: من يقدم الأشد مشقة، ومن يقدم الزهد وجمع القلب، ومن يقدم نفع الناس، ومن يطلب مرضاة الله بحسب الوقت والحال. ولا يجعل مجرد المشقة معياراً، ولا يميز أن تشغل لذة الخلوة عن واجب، ولا يحصر الخير في عمل واحد مهما عظم نفعه.

ويرجح الاتجاه الرابع؛ فحضور الصلاة يدعو إلى إقامتها، وحاجة من يطلب العلم تدعو إلى تعليمه، وحق الضيف والأهل يدعو إلى القيام به، وضرورة المحتاج قد تقدم إغاثته على نافلة يشتغل بها المرء. وللسحر حظه من الدعاء والاستغفار، وللقرآن حظه من الإصغاء والتدبر، وللمواسم الفاضلة عباداتها المناسبة.

وفي مخالطة الناس ينظر إلى الخير والشر: يخالطهم في الخير، ويعتزل مشاركتهم في الشر، وقد تكون مخالطته للإصلاح وتقليل المنكر أنفع. وهذه الموازنة تراعي العلم والقدرة والحقوق الواجبة؛ فلا تصير ذريعة يترك بها الإنسان ما يشق عليه.

قد تخرج من صلاة وأنت أهدأ، وقد تخرج وما زال الهم حاضراً. فلا تحكم على العبادة بمقدار ما حققته لك من راحة عاجلة وحدها. أنت تصلي امتثالاً ومحبة ورجاء، وتسال الله أن يصلح بها قلبك، وتعلم أن ضعفك يحتاج إلى مداومة.

وقبل أن تضيف نوافل كثيرة، انظر إلى الفريضة التي تتعجلها. هل أعطيت القراءة والركوع والسجود حقها؟ هل علمت ما يصح صلاتك؟ الإصلاح القريب الذي تقدر عليه اليوم أولى بالرعاية من صورة بعيدة تتمنى الوصول إليها ولا تبدأ.

القرآن حين يسمعه قلبك

قد تمر عينك على السطور ولا يصل إلى قلبك إلا القليل، لأنك دخلت القراءة وأنت تحمل أصواتاً كثيرة. لا يمنحك هذا أن تقرأ، لكنه يدعوك أن تعطي السماع والفهم نصيبهما، وأن تهبي من وقتك ما تستطيع.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

[ق: ٣٧]

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٤١}

«إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك.»

يبين ابن القيم دلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فالقرآن هو الخطاب المؤثر، والقلب الحي محل القبول، والإصغاء شرط، والشرود مانع. فإذا اجتمع الحضور والإصغاء والتفكير حصل الانتفاع بإذن الله.

ويشرح اختلاف استعداد الناس: فمنهم من تكون فطرته وقلبه أسرع استجابة، فيوافق نور الوحي ما في نفسه من طلب الحق؛ ومنهم من يحتاج إلى إفراغ سمعه وإطالة التأمل حتى يتبين له. فلا يحرم الثاني نفسه من الباب لأن الأول سبقه في سرعة التأثير.

ثم يبين أنواعاً من هجر القرآن، فيوسع السؤال من مجرد وجود المصحف في البيت إلى حقيقة الصلة به:

ابن القيم، الفوائد - مقتطف وبيان^{٤٢}

«هجر القرآن أنواع»

يذكر ابن القيم خمسة أبواب لهجر القرآن: ترك سماعه والإيمان به، وترك العمل بجلاله وحرامه مع قراءته، وترك التحاكم إليه، وترك تدبره وفهمه، وترك الاستشفاء به من أمراض القلب. وهذه الأنواع متفاوتة، فلا يسوى بين أحكامها، ولا يحكم على شخص بحكم واحد لمجرد دخوله في بعض التقصير.

لا يلزمك أن تبتكر لكل آية شعوراً خاصاً. تعلم معناها من تفسير موثوق، وتأمل ما تدعوك إليه، واعمل بما تبين لك. وإذا أشكل عليك شيء فاسأل، ولا تحمل النص على خاطرة لأن وقعها في نفسك جميل.

قال النبي ﷺ، فيما رواه أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه:

«اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»

صحيح مسلم، الحديث ٨٠٤؛ مقتطف من الحديث ٤٣.

وقد تجد آية توقظ فيك تقصيراً معلوماً، حقاً أخرته أو عادة تعرف ضررها. هنا يبدأ نصيب العمل. لعل جلسة قصيرة تنتهي بإصلاح حقيقي أنفع لقلبك من انفعال طويل لا يغير ما تستطيع تغييره.

واجعل للقرآن موضعاً مستقراً في يومك بحسب طاقتك. ليست هذه الصفحات تفرض عدداً أو وقتاً لم يرد به الشرع، بل تدعوك إلى تنظيم عينك على ما شرع. وتبقى الفضيلة المخصوصة محتاجة إلى دليلها، أما حسن ترتيب اليوم فوسيلة تعين على المداومة.

الذكر الذي يردك

تنسى لأنك بشر، وتوزع لأن الأعمال تتكاثر، وقد تمضي ساعات لا تنتبه فيها إلى ما صار همك الأكبر. ثم تقول كلمة من ذكر الله بقلب حاضر، فتتذكر أنك عبد له، وأن يومك كله ماضٍ إليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾

[الأحزاب: ٤١]

﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

[الأحزاب: ٤٢]

يصاحب الذكر تفاصيل الحياة: عند الاستيقاظ والنوم، وفي العبادة والمعاملة، وعند الفرح والمصيبة. وكلما تعلّم المسلم المأثور وفهمه، وجد للسانه وقلبه باباً إلى الحضور.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحى والميت»

صحيح البخاري، الحديث ٤٤٠٦٠٧

والذكر المشروع له ألفاظ ومعان يتعلّمها العبد. يسبح ويحمد ويهلل ويكبر، ويستغفر ويدعو، ويحرص على المأثور. أما تخصيص عدد أو كيفية بفضيلة دينية فلا يثبت بمجرد أن أحدا جربه فاستراح إليه.

ابن تيمية، العبودية - مقتطف وبيان^{٤٥}

«والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه، لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره.»

يقرر ابن تيمية أن الذكر المشروع كلام ذو معنى، يجمع التوحيد والثناء والدعاء، وأن الألفاظ النبوية أجمع للهدى. ويناقش جعل الاسم المفرد أو الضمير وحده مرتبة أعلى من كلمة التوحيد؛ فلا يثبت هذا التفضيل بمجرد دعوى الذوق أو الخصوصية.

ويفسر قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ في آية الأنعام [٩١] على سياقه: هو جواب السؤال عمن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، وليس أمراً بابتداء ورد يقتصر على الاسم المفرد. وفهم السياق يحمي العبادة من اقتطاع اللفظ عن معناه.

ابن القيم، الفوائد - مقتطف وبيان^{٤٦}

«مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر.»

الذكر عند ابن القيم أوسع من حركة اللسان؛ يشمل معرفة الله بأسمائه وصفاته، وتذكر أمره ونهيه، وتلاوة كلامه، والثناء عليه واستحضار إحسانه. والشكر يقوم بالقلب محبة وإنابة، وباللسان حمداً، وبالجوارح طاعة وبذلاً.

ويستدل بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. فالعبد يعرف المنعم ويطيعه، ويستقبل نعمته بما يحب. والذكر يوقظ هذه المعرفة كلها غفل القلب، والشكر يترجمها إلى فعل؛ فلا تنفصل العبادة عن طريقة الانتفاع بالمال والصحة والوقت.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٤٧}

«وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده.»

يصف ابن القيم طريقين إلى اجتماع القلب واللسان: قد يبدأ اللسان بالذكر، ثم يستيقظ القلب ويلحق به؛ وقد يستحضر القلب المعنى أولاً، ثم يجري به اللسان. والمقصود اكتمال الاجتماع، لا تحويل أحد الطريقين إلى شرط يمنع الآخر.

ابداً بما تستطيع حفظه وفهمه من الأذكار الثابتة، وارجع إلى مصدر موثوق فيما لم تحفظ. وحين تغفل فعد، ولا تجعل الغفلة السابقة حجة لتترك الذكر اللاحق. ربما كان من خير يومك أنك انتبهت بعد انقطاع، فشكرت الله على باب الرجوع.

ولليل نصيب

حين تهدأ الأصوات يظهر في القلب ما أخفته حركة النهار. وقد يكون هدوء الليل فرصة لقراءة ودعاء وصلاة، من غير أن تتحول النافلة إلى سبب لتضييع فريضة أو حق واجب.

﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

[السجدة: ١٦]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»

صحيح مسلم، الحديث ٤٨٠١١٦٣

ليس الناس سواء في أوقاتهم وطاقاتهم. من يعمل ليلاً، ومن يمرض، ومن يرعى طفلاً، ومن يقوم على محتاج؛ لكل منهم حال ينظر فيه إلى ما يقدر عليه. وباب الخير واسع، والفرائض مقدمة، والقليل الدائم له شأنه.

عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ:

«سدّدوا وقاربوا، واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله، وإن قل»

صحيح البخاري، الحديث ٤٩٠٦٤٤

وقد نقلت السنة من هدي النبي ﷺ في قيام الليل ما يجمع الشكر والاجتهاد، كما نقلت توجيهه إلى الاقتصاد وعدم تحميل النفس ما تنقطع به. فلا تأخذ صورة من سيرته وتدع ما يبينها من سائر هديه.

عن عائشة رضي الله عنها:

أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال «أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا». فلما كثر لحمه صلى جالسا فإذا أراد أن يركع قام، فقرأ ثم ركع

صحيح البخاري، الحديث ٥٠٤٨٣٧

قد يكون نصيبك ركعتين خفيفتين تحسنهما، أو دعاء صادقا قبل نومك، أو استغفارا في وقت تيسر لك. لا تنسب إلى ترتيبك فضيلة خاصة بلا دليل، ولا تجعل المقارنة بمن هو أكثر عملا سببا لاحتقار باب فتحه الله لك.

وفي «مدارج السالكين» بيان للصبر على الطاعة، وما تحتاجه من رعاية قبل العمل وفي أثرائه وبعده:

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{٥١}

«فإن الطاعة تختلف من فوات واحد من هذه الثلاثة.»

يشرح ابن القيم كلام الهروي في الصبر على الطاعة: دوامها، ورعايتها بالإخلاص، وتحسينها بالعلم. فالدوام يحفظها من الانقطاع، والإخلاص يحفظ مقصدها، والعلم والمتابعة يحفظان صفتها من المخالفة. ولا يغني واحد من هذه الأركان عن الآخرين.

وقد يثبت الإنسان على عمل، ولكن يطلب به ثناء الناس؛ وقد يخلص قصده، ولكن يعمل على غير هدى. لهذا يحتاج إلى تجديد النية وتعلم السنة كما يحتاج إلى قوة العزم. والعبادة التي تستقيم بهذه الثلاثة أرجى للبقاء والنفع من اندفاع عابر لا يعرف صاحبه حدوده.

حين ينتهي الليل لا تحمل إلى الناس شهادة بما فعلت فيه. احمد الله على التوفيق، واسأله القبول، ودع أثر العبادة يظهر في خلقك. وإذا قصرت فلا تجعل الفوات نهاية العهد؛ فما زال باب التوبة مفتوحاً، وما زال في عمرك موضع لرجوع جديد.

عد كلما ابتعدت

قد يثقل الذنب على القلب حتى يجعله يتجنب كل ما يذكره بالله؛
ينجّل من الدعاء، ويؤخر الصلاة، ويقول إنه سيعود حين يصير
أفضل. لكنه يحتاج أن يعود ليتحسن، وأن يتوب ليتطهر، وأن يبدأ
من موضع ضعفه.

ج

﴿قُلْ يُعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[الزمر: ٥٣]

هذه الآية باب رجاء، ويلها الأمر بالإنابة إلى الله والإسلام له.
فلا يفصل الرجاء عن التوبة، ولا يجعل الذنب حاجزاً دونها. يرجع
العبد نادماً، ويقلع، ويعزم على الاستقامة، ويرد حقوق الناس
بحسب ما يلزمه ويستطيعه.

﴿وَإِنِّيَبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا
تَنْصُرُونَ﴾

[الزمر: ٥٤]

ومن القصص النبوية قصة الرجل الذي قتل مئة نفس ثم سأل عن التوبة، وفيها أن صدق الطلب يصحبه انتقال عما يعين على الشر إلى ما يعين على الطاعة:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة فقال لا. فقتله فكل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء.

فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»

صحيح مسلم، الحديث ٥٢٠٢٧٦٦

قد يحتاج رجوعك إلى تغيير صفة أو وسيلة أو عادة تفتح عليك باب الذنب. لا تكتفِ بوعده تصنعه كل مرة ثم تبقي جميع أسباب السقوط كما هي. اسأل الله العون، وخذ بسبب معلوم، واجعل بينك وبين الخطأ ما تستطيع من الحواجز.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٥٣}

«الإنبابة هي عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد.»

يفسر ابن القيم الإنبابة بلزوم القلب محبة الله وذكره وتعظيمه، ولزوم الجوارح طاعته بإخلاص واتباع. وليس المقصود ترك أعمال الحياة، بل أن يبقى اتجاه القلب إلى الله وهو يتحرك فيها.

ويحذر من تعلق يستعبد الإنسان للمال أو الصور أو الأهواء، فيدور رضاه وسخطه معها. وهذا التحذير من عبودية الهوى لا يجعل كل محبة طبيعية أو كل انتفاع بسبب مباح شركاً؛ فالميزان حقيقة التعلق والعمل الذي يثمره.

ثم يصور الناس مسافرين إلى غاياتهم: فمن قصد الله والدار الآخرة جعل أيامه زاداً للقدوم، واستحضر قربه من ربه قبل استحضار ما يطلبه من النعيم. فالإنبابة رجوع متكرر، يختبره الإنسان في اختياراته الصغيرة قبل لحظات الشدة الكبيرة.

وإن عدت إلى الذنب بعد توبة صادقة، فجدد توبتك، ولا تيأس.
لا تتخذ سعة الرحمة إذناً بالإصرار، ولا تتخذ تكرار العثرة حجة على أن
الرجوع لا ينفع. أنت مأمور بالصدق الآن، وبإصلاح ما تقدر عليه
الآن.

من باب الفرائض

قد تستوقفك الحكايات عن عباد بلغوا من النوافل مبلغاً عظيماً، فتشتاق إلى أحوالهم. لكن أقرب سؤال إلى صدقك: كيف أنت فيما افترضه الله عليك؟ هذا السؤال يحفظ الطريق من أن يتحول إلى طلب خصوصية قبل أداء العبودية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«إن الله قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»

صحيح البخاري، الحديث ٥٤٠٦٠٢

في الحديث القدسي يبدأ التقرب بما افترض الله، ثم تأتي النوافل. وهو ترتيب يحسن أن يبقى ظاهراً في يومك: صلاة، وزكاة، وصيام، وأمانة، وحقوق واجبة بحسب حالك. ما أيسر أن تتعلق النفس بعمل تحبه وتغفل عن عمل يلزمها ويخالف هواها.

ابن تيمية، التحفة العراقية في الأعمال القلبية — مقتطف وبيان^{٥٥}

«فأولياء الله هم المؤمنون المتقون.»

يقرر ابن تيمية أن أعمال القلوب، كالحبة والإخلاص والتوكل والشكر والصبر والخوف والرجاء، من أصول الإيمان، وأن أصلها مطلوب من المكلفين جميعاً. والناس فيها متفاوتون، كما يتفاوتون في أعمال الجوارح: ظالم لنفسه، ومقتصد يؤدي الواجب ويترك المحرم، وسابق يتقرب بالنوافل مع الفرائض.

والولاية مرتبطة بالإيمان والتقوى؛ فلا تختص بمظهر غريب أو دعوى منزلة خفية. وقد تجتمع في المؤمن طاعات ومعاص، فيكون له من الخير والولاية بحسب إيمانه وتقواه، وعليه من التبعة بحسب مخالفته. فلا يمحو الذنب كل ما في صاحبه من خير، ولا تبيح العبادة له مخالفة الشرع.

وينبه إلى أن من استحسن باطلاً واتخذ ديناً قد يتأخر عن التوبة لعدم رؤيته الخطأ؛ ومع ذلك فباب توبته مفتوح إذا تبين له الحق ورجع. والعمل بما عرف من الهدى يعينه على مزيد منه، والإعراض المتعمد يضعف بصيرته.

ويجمع الصديق بين الخبر والقصد والعمل: يصدق لسانه، وتصدق إرادته، وتوافق أفعاله دعواه. أما الإخلاص فهو إفراد الله بالعبادة، بعيداً عن الاستكبار والرياء والشرك. والحديث القدسي السابق يبين الطريق العملي إلى محبة الله: المحافظة على الفرائض، ثم التقرب بالنوافل.

وحين نقرأ حديث الولاية نفهمه في ضوء التوحيد: العبد عبد، والرب سبحانه هو الخالق، وما أخبر به الحديث من محبته لعبده وتوفيقه لا يحمل على حلول الخالق في المخلوق أو اتحاده به. بل يحفظ المؤمن جوارحه في طاعة ربه، مستعيناً به، سائلاً إياه.

اجعل عمارة ما بينك وبين الله عملاً يمكن أن تراه في يومك. صحح فريضة، ورد مظلمة، وتعلم حكماً تحتاج إليه، ثم زد من الخير ما تستطيع. وما أيسر أن تدل دعوى المحبة على نفسها حين يظهر أثرها في أقرب الناس إليك.

الباب ٥

إلى الله بين عباده

لا تهدم ما أمرك الله بعمارته

من أكثر ما يحتاج إلى البيان في الآيات قول الشاعر: «وييني وبين العالمين خراب». فإن حملت العبارة على قطيعة الرحم، أو ظلم الناس، أو الاستخفاف بحقوقهم، ناقضت من المعنى ما أرادت أن تمدحه. عمارة الصلة بالله تكون بطاعته، ومن طاعته الإحسان إلى خلقه.

﴿وَأَنْ جَهْدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمَهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[لقمان: ١٥]

تأمل اجتماع الأمرين في شأن الوالدين: لا طاعة لهما في الشرك، مع الأمر بصحبتهما في الدنيا معروفاً. فإذا كانت المخالفة في هذا الأصل العظيم لا تسقط حسن الصحبة، فكيف يجعل بعض الناس كل اختلاف مبيحاً للقسوة؟

قال النبي ﷺ، في حديث علي رضي الله عنه:

«لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف»

صحيح البخاري، الحديث ٧٢٥٧؛ مقتطف من الحديث ٥٦.

قد ترفض طلباً محرماً، وتبقى باراً، وتشرح برفق، وتبحث عن بديل مباح. وقد يمنحك الله من تلبية رغبة إنسان، ثم يفتح لك أبواباً أخرى للإحسان إليه. الثبات على الدين لا يحتاج إلى أن تجف الرحمة في القلب.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٥٧}

«تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه.»

يجمع ابن القيم بين حق الله وحقوق عباده. فالتقوى لا تكتمل في حياة يكثر صاحبها من العبادة ثم يستهين بأذى الناس، وحسن المعاملة يزداد رسوخاً حين يطلب به وجه الله. وعلى المسلم أن يصلح سريره وسلوكه معاً، فيصدق ويعدل ويرحم، ويجعل أقرب الناس إليه أول من يجد أثر ذلك.

وفي «العبودية» بيان أن العبادة اسم يتسع لما يحبه الله من الأقوال والأعمال؛ فلا يصح أن نحصرها في حال وجداني ونخرج منها الأمانة والعدل والبر. ولهذا يختبر صدق المرء عند الحقوق التي تستثقلها نفسه، كما يختبر عند العبادة التي يجد فيها لذته.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه»

صحيح البخاري، الحديث ٥٨٠٥٩٨٦

ينسأ له في أثره: يؤخر له في أجله.

اسأل نفسك عن حق واضح تعرفه. ربما كانت مكالمة لوالد، أو ديناً تؤخره مع القدرة، أو اعتذاراً تخشاه، أو رعاية لضعيف. هذه الأعمال قد لا تملأ خيالك بصورة مقام رفيع، لكنها من الدين الذي تريد أن تلقى الله به.

بيتك موضع عبادتك

قد يسمع الناس منك كلاماً حسناً، ثم يعود أهلك إلى وجه لا يعرفون فيه من ذلك الكلام إلا القليل. في البيت تظهر طباع لا يضبطها حرصنا على الانطباع العام، ولهذا كان البيت ميداناً صادقاً لمجاهدة النفس.

وفي قصة سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما بيان نبوي لحقوق الرب والنفس والأهل. لم يترك سلمان صاحبه يظن أن كثرة النافلة تبرر التفريط فيما سواها:

عن أبي بحيفة رضي الله عنه، قال:

آخى النبي ﷺ بين سلمان، وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة. فقال لها ما شأنك قالت أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاما. فقال كل. قال فإني صائم. قال ما أنا بآكل حتى تأكل. قال فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. قال نم. فنام، ثم ذهب يقوم. فقال نم. فلما كان من آخر الليل قال

سلمان قم الآن. فضليا، فقال له سلمان إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه.

فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ «صدق سلمان»

صحيح البخاري، الحديث ٥٩٠١٩٦٨

متبذلة: في ثياب المهنة، تاركة للزينة.

صدق النبي ﷺ سلمان، فاستقام الميزان. لن تحتاج إلى أن تختار بين الدين والرحمة بأهلك حين تفهم الدين كما جاء. قد تكون رعايتهم، والقيام بما يلزمك تجاههم، من أصدق أبواب التقرب التي أمامك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا
تَعْضُلوهن لَتَذْهَبْنَ بِبَعْضِ مَآءِيتِمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ
وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا
وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

[النساء: ١٩]

والإحسان في البيت يحتاج إلى أعمال صغيرة متكررة: إصغاء، ورفق في الطلب، وعدل في توزيع الأعباء، وحفظ للسان عند الغضب. لا تجعل قريهم منك سببا للاستخفاف بتعبهم، ولا تفترض أنهم يعرفون محبتك بحيث لا يحتاجون إلى أثرها.

عن الأسود، قال:

سألت عائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته قالت كان يكون في مهنة أهله تعني خدمة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة

صحيح البخاري، الحديث ٦٠٠٦٧٦

مهنة أهله: خدمتهم.

وقد يعرض في البيت خلاف يحتاج إلى نصح أو تحكيم أو معرفة بالحكم الشرعي. لا تختزل كل ذلك في طلب الصبر من الطرف الأضعف، ولا تجعل لغة الوعظ ستاراً يمنع إصلاح الظلم. العدل جزء من العبادة، والاعتذار عن الخطأ لا ينقص صاحبه.

ابن القيم، الفوائد - مقتطف وبيان^{٦١}

«وضابط هذا كله العدل، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط.»

يبين ابن القيم أن الأخلاق تحتاج إلى ضبط؛ فالغضب قد يحمي من الرذيلة، فإذا تجاوز الحد صار عدواناً. والحرص على الكفاية يحفظ المسؤولية، فإذا استولى تحول إلى شره. والمنافسة المحمودة تطلب مثل الخير الذي عند الغير، أما تمني زوال نعمته أو إيذاؤه ففسد مذموم.

وكذلك الراحة تعيد القوة للعمل، فإذا زادت عطلت المصالح، وإذا نقصت أضعفت البدن. والجود بين البخل والتبذير، والشجاعة إقدام حيث يحسن الإقدام وإحجام حيث يحسن، والغيرة تحفظ الحق من غير اتهام للبريء، والتواضع يجتنب الكبر من غير إذلال للنفس.

وهذا الوسط يعرف بالشرع والعدل وحقيقة الحال؛ فلا يعني الوقوف في منتصف أي طرفين، ولا التنازل عن الحق لإرضاء الجميع. ومن العلم النافع أن يعرف الإنسان حدود الخلق المحمود، لئلا يدخل فيه ما يفسده أو يخرج منه ما يتممه.

دع قلبك يحنو عليهم

قد تمر بك حاجة إنسان قتراها خبراً بعيداً، ثم يفتح الله قلبك لها فتصير نداءً إلى عملٍ. الرحمة لا تقف عند التأثر؛ تسأل عما تستطيع تقديمه، ولو كان قليلاً.

روى جرير رضي الله عنه مشهد قوم قدموا على رسول الله ﷺ وقد ظهر عليهم الفقر، فحث النبي ﷺ على الصدقة، ثم نتابع الناس بالبدل. نقرأ الخبر فنرى كيف يجتمع التنبيه والإقدام والافتداء في باب خير واحد:

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال:

كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال فجاءه قوم حفاة عراة مجتأبي النمار أو العباء متقلدي السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» إلى آخر الآية ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ والآية التي في الحشر

﴿ اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ﴾ تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره - حتى قال - ولو بشق تمره».

قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت - قال - ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتהל كأنه مذهبة فقال رسول الله ﷺ «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجزائها شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»

صحيح مسلم، الحديث ١٠١٧. ٦٢

مجتابي النمار: لابسى أكسية مخططة. والفاقة: الفقر. وكأنه مذهبة: في صفائه واستنارته.

ابن القيم، الفوائد - مقتطف وبيان ٦٣

«المواساة للمؤمن أنواع: مواساة بالمال، ومواساة الجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد.»

ويذكر ابن القيم كذلك الدعاء والاستغفار والتوجه للمؤمنين. فباب المواساة يتسع لمن قل ماله: قد يرافق مريضاً، أو يحمل عن متعب، أو يدل حائراً، أو يشفع شفاعة حسنة، أو يسمع حزيناً بصدق.

ومن دقة الرحمة أن تحذر أذى من لا يخاف الناس أذاه. وفي خبر أبي بكر مع سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم تذكير عظيم بمكانة عباد الله المؤمنين، وبالرجوع إليهم طلباً لسلامة ما بينهم:

عن عائذ بن عمرو رضي الله عنه:

أن أبا سفيان، أتى علي سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. قال فقال أبو بكر أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك». فأتاهم أبو بكر فقال يا إخوانه أغضبتكم قالوا لا يغفر الله لك يا أخى

صحيح مسلم، الحديث ٦٤٠٢٥٠٤

قد تجرح أحداً وأنت تظن أن المقصود أكبر من مشاعره. لكن كبر مقصودك لا يعفيك من العدل، ولا يجعل كل وسيلة مباحة. تستطيع أن تنصح، وأن ترد خطأ، وأن تحفظ مع ذلك حرمة الإنسان.

والرحمة تحتاج إلى علم وقدرة؛ فتبذل ما ينفع، وتثبت ممن تعطيه، وتحفظ الأمانة، ولا تعد بما لا تستطيع. ثم لا تمن على من أحسنت إليه، ولا تجعله مديناً لك في نفسه لأنك أعنته مرة.

في حضرة غضبك

للغضب قدرة على اختصار العالم في لحظة واحدة؛ تنسى سابق المعروف، وتجمع في خصمك كل ما تكره، وتتهيا لك كلمات تعرف أنها تؤذي. هنا تحتاج إلى ما يردك قبل أن يصير الشعور فعلاً تندم عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»

صحيح البخاري، الحديث ٦٥٠٦١١٤

الصرعة: الذي يصرع الناس بقوته.

لا يعني ضبط الغضب إسقاط حقك. لك أن تطلب العدل بالوسائل المشروعة، وأن تمنع الأذى، وأن تستشير من يعينك على القرار. لكنك تحفظ حدود الله وأنت تطلب حقك، فلا تكذب ولا تظلم ولا تحمل البريء وزر غيره.

ابن تيمية، قاعدة في الصبر — مقتطف وبيان^{٦٦}

«والأصل الثاني الشكر، وهو العمل بطاعة الله تعالى.»

يبني ابن تيمية رسالته على الصبر والشكر: صبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى المصيبة، وشكر يثمر عملاً. ويطيل في الأذى الذي يأتي من الناس، لأن النفس فيه ترى من آذاها، فتشتد رغبتها في الرد والتشفي.

ومن المعاني التي يعين بها على الصبر: استحضار قدر الله مع مسؤولية الظالم عن فعله، ورجاء أجر العفو، وحفظ القلب من الغل، وتذكر حاجة العبد نفسه إلى المغفرة. ومنها أن الانشغال الدائم بالانتقام قد يضعف الوقت والمصالح، وأن الغضب قد يحمل المظلوم على تجاوز حقه فيصير ظالماً.

ويذكر أثر الاقتداء بالنبي ﷺ في الحلم، وقوة النفس حين تقاوم هواها، وما يرجى للعفو من إصلاح الخصومة وقطع امتداد الشر. وقد تلد الحسنة حسنة بعدها؛ فيصير موقف مؤلم بداية لسلامة صدر ونضج في العمل.

وتحتاج هذه المعاني إلى ضبط عند تنزيلها على الناس. فلا نجزم بأن أذى شخص معين عقوبة على ذنب معين؛ فقد يكون البلاء رفعة، وقد خص الأنبياء بأعظم الابتلاء. كما أن رجوع المعتدي عن عدوانه نتيجة مرجوة، وليس ضماناً يلزم كل حالة.

والعفو المحمود يقترب بالإصلاح [الشورى: ٤٠]. وللمظلوم أن يطلب حقه بالعدل، وأن يستعين على وقف الأذى؛ فلا يطالب بتمكين المعتدي، ولا يلام على ألم لا يختاره. وما يتركه من التشفي المحرم لا يمنعه من الحماية المشروعة لنفسه ولغيره.

هذا الكلام يحتاج إلى تنزيل صحيح. لا نجعله ذريعة لإدامة خطر على نفس أو ولد، ولا نمنع به مظلوماً من شكوى مشروعة. إنما نأخذ منه تربية القلب على ألا يستبد به الانتقام، وأن يزن اختياره بالشرع والمصلحة.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ
أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[النور: ٢٢]

والعفو الذي يرجى به وجه الله قد يكون شاقاً، وليس كل الناس يقدر عليه في كل موقف. من طلب حقه بعدل لا يسوى بمن تعدى، ومن عفا عفوا يصلح حاله وحال غيره يرجو فضل الله. والميزان يحتاج إلى حكمة، لا إلى كلمة تلقى على كل مصيبة بلا نظر.

قد يكون أول ما تستطيعه أن تؤخر جواباً وأنت شديد الغضب، ثم تعود إليه حين تستعيد قدرتك على العدل. وقد تحتاج إلى من يسمع لك دون أن يزيد النار في صدرك.

الصلحة التي تعينك

ليس كل من وافقك ناصحاً، ولا كل من خالفك عدواً. قد يحفظ لك الصديق الصالح دينك بكلمة لا تتراح إليها أول الأمر، ثم تعرف أنه أراد لك خيراً لا يشتريه بثنائك.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافع الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافع الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة»

صحيح مسلم، الحديث ٢٦٢٨. ٦٧

يحذيك: يعطيك. والكير: ما ينفخ به الحداد النار.

ومن أحاديث المحبة في الله خبر الرجل الذي زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً. لم يخرج يطلب منفعة يجدها عنده، بل أحبه لله، فجاءته البشري بمحبة الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«أن رجلا زار أخاه في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال أين تريد قال أريد أخا لي في هذه القرية. قال هل لك عليه من نعمة تربها قال لا غير أني أحبته في الله عز وجل. قال فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه»

صحيح مسلم، الحديث ٢٥٦٧. ٦٨

مدرجته: طريقه. وتربها: نتعاهد بها وتقوم عليها.

تحتاج في صحبتك إلى من يقرب منك العمل الصالح، ويذكرك بحق نسيت، ويحفظ غيبتك، ويعينك على التوبة. وتحتاج أنت أن تكون لصاحبك مثل ذلك؛ فالصداقة النافعة ليست طلب خدمة روحية من الآخرين مع نسيان واجبك تجاههم.

وفي زيارة أبي بكر وعمر لأُم أيمن رضي الله عنهم، بعد وفاة النبي ﷺ، مشهد مؤثر. بكت، وبينت أن سبب بكائها انقطاع الوحي من السماء، فهيجتهما على البكاء. نقرأ الخبر في حدوده، دون أن نضيف إليه حواراً لم ينقل:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما انتهينا إليها بكت فقالا لها ما يبكيك ما عند الله خير لرسوله ﷺ.

فقلت ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء فجعلتا يبكيان معها

صحيح مسلم، الحديث ٢٤٥٤. ٦٩

قد تكون جلسة صادقة مع من يحب الخير سبباً في أن ترى تقصيرك دون يأس، وأن تستأنف ما انقطعت عنه. وقد يضر القلب من يجعله دائماً يتتبع عيوب الناس ويعجب بنفسه. فانظر إلى ما تتركه الصلحة في عملك، لا إلى متعة الحديث وحدها.

وللصلحة حدود تحفظها؛ فلا طاعة في معصية، ولا تعلق يزاحم حق الله، ولا احتكار لمشاعر صاحبك. الحب في الله يعين على طاعته، ويقبل النصيح، ويرجو الخير للمحبوب حيث كان.

سريرة يصلح بها الظاهر

قد تصلح عبارة وتبقى النية مضطربة، وقد يحسن ظاهر فعل ويخالطه طلب علو على الناس. ولهذا يحتاج الإنسان إلى عمل على قلبه، كما يحتاج إلى تعلم آداب معاملته.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾

[الشعراء: ٨٨]

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[الشعراء: ٨٩]

سلامة القلب لا تعني أن صاحبها لا يعرف الحزن أو الغضب، وإنما يجاهد ما فيه من كبر وحسد وحقد ورياء، ويطلب أن يلقي الله بالإيمان والإخلاص. وأثر ذلك يظهر في قدرته على الاعتذار، والإنصاف، والفرح بخير يصيب غيره.

ابن القيم، الفوائد - مقتطف وبيان^{٧٠}

«فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل».

يرد ابن القيم جملة من الأخلاق السيئة إلى الكبر أو دناءة الهمة: فالكبر يجر إلى الفخر والبغي ورد النصيحة، وضعف النفس قد يجر إلى الخيانة والطمع والرياء. ويقابل ذلك باجتماع الخشوع وعلو الهمة؛ خشوع يمنع التعالي، وهمة تمنع الاستسلام للدنيا.

ومن هذا الاجتماع تنمو العفة والصدق والعدل والشجاعة والحلم والإيثار. فلا يتصور التواضع عجزاً عن فعل الخير، ولا تتصور الهمة العالية طلباً للسيطرة على الناس. القلب الخاشع يقبل الحق، والنفس الكريمة تسعى إليه، ولو احتاج ذلك إلى اعتذار أو تعلم أو بدء جديد.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٧١}

«فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب».

يذكر ابن القيم علامات ينتفع المرء بحاسبة نفسه عليها: أن تزيده المعرفة تواضعاً ورحمة، ويزيده المال سخاء، ويزيده الجاه قرباً من الناس وقضاء لحوائجهم. وفي المقابل قد تكشف الزيادة كبراً وبخلاً واحتقاراً؛ فتكون النعمة امتحاناً لم يحسن صاحبه أداءه.

ويستدل بدعاء سليمان عند رؤية العرش [النمل: ٤٠]، وبآيات الفجر [١٥-١٧] التي تنفي أن تكون سعة الرزق وحدها دليل إكرام، أو ضيقه وحده دليل إهانة. فقيمة النعمة فيما يصنعه العبد بها، ولا يصح أن نجعل ثراء الناس أو فقرهم ميزاناً لكرامتهم عند الله.

وقد يفتن الإنسان بصورة الملامة كما يفتن بصورة المدح؛ يتعمد ما ينفر الناس منه، ثم يظن أنه تحرر من نظرهم. وليس من إصلاح القلب أن يخالف الشرع أو يسيء الخلق ليثبت استقلاله عن الثناء. المطلوب صدق العبادة وحسن المعاملة، سواء عرف الناس قدره أو جهلوه.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{٧٢}

«ولا سبيل لأحد قط في الدنيا إلى مشاهدة الحق سبحانه، وإنما وصوله إلى شواهد الحق.»

يناقش ابن القيم ألفاظاً يستخدمها بعض أهل السلوك في المحبة والمشاهدة، ويبين الفرق بين حضور معاني الإيمان في القلب وبين دعوى رؤية ذات الله في الدنيا. فما يجده المؤمن من نور المعرفة والمحبة والتعظيم أثر للإيمان، وليس انكشافاً لذات الرب.

ويرد كذلك دعوى بلوغ حال لا ينتظر صاحبها زيادة؛ فعرفة العبد محدودة، وكمال الله لا تحيط به. وكلما ازداد علماً ومحبة بقي مفتقراً إلى الهداية والتوفيق.

والمقصود صيانة التجربة الوجدانية بميزان الوحي. قد يرق القلب ويقوى يقينه، فيشكر هذه النعمة ويزداد اتباعاً، ولا يجعل شعوره دليلاً مستقلاً على الغيب، ولا يظن أنه بلغ مقاماً يستغني فيه عن الأمر والنهي.

اسأل الله قلباً سليماً، وابدأ بما تقدر عليه من أعمال سلامته. ادع لمن تجد في نفسك عليه شيئاً، ورد حقاً، واترك تتبع العثرات، واذكر فضل الله عليك. لا تنتظر أن تختفي جميع مشاعرك الصعبة قبل أن نتصرف بعدل.

الباب ٦

إذا صح منك الودّ

التوكل الذي يحمل قلبك

قد تعرف ما ينبغي فعله، ثم يعجز قلبك عن احتمال ما لا تملكه من النتائج. تبذل السبب وتعود إليه مرات، كأن كثرة النظر ستمحك سلطاناً على الغيب. هنا تحتاج إلى التوكل؛ إلى أن تعمل وأنت تعلم أن أمرك إلى الله.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[التوبة: ٤٠]

وفي خبر أبي بكر رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ في الغار يظهر خوف بشري، ويأتي الجواب النبوي مذكراً بمعية الله الخاصة بالنصر والحفظ. لم تكن الهجرة تركاً للأسباب، وفي سيرتها تعلم وتدير وبذل، مع اعتماد القلب على ربه:

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال:

قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»

صحيح البخاري، الحديث ٧٣.٣٦٥٣

لا يملك الإنسان أن يمنع كل احتمال مؤلم، لكنه يملك أن يتقي الله فيما بين يديه. يخطط بقدر ما يستطيع، ويستشير، ويتعلم، ثم يفوض إلى الله ما خرج عن قدرته. وكلها عاد القلق رده إلى هذا الأصل.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٧٤}

«وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده.»

يفرق ابن القيم بين التوكل في حاجات الدنيا ودفع مكارهها، والتوكل في طلب ما يحبه الله من الهداية والتوحيد والاتباع. وكلاهما مشروع، ويعلو القصد حين يسأل العبد ربه أن يعينه على مرضاته، لا أن يحقق مطالبه العاجلة وحدها.

وقد يلجأ الإنسان إلى الله حين تضيق الأسباب، وقد يتوكل عليه والأسباب متاحة. وفي الحال الثانية يظهر معنى الجمع بين عبودية القلب وعمل الجوارح: يفعل السبب المأمور به، ويترك المحرم، ويأخذ بالمباح النافع، ولا يعتمد بقلبه إلا على الله.

فترك السبب الواجب خلل، والركون إلى السبب كأنه مستقل بالنفع خلل آخر. أما قوله: «توكلت على الله» فلا يحقق معناه إذا كان القلب متعلقاً بغيره. والنتيجة يقدرها الله بحكمته؛ فلا يجعل المرء التوكل عقداً يفرض به الصورة التي يريد أو الموعد الذي اختاره.

ابن تيمية، العبودية — مقتطف وبيان^{٧٥}

«وبالعبودية نعت كل من اصطفى من خلقه.»

يجمع ابن تيمية شواهد القرآن على أن عبادة الله وحده أصل دعوة الرسل، وأن وصف العبودية مدح لأكبر الخلق. فقد وصف الله به إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ونوحاً، ووصف به محمداً ﷺ في مقام الإسراء والوحي.

فالقرب من الله يزيد صدق العبودية ولا يرفع تكاليفها. والإخلاص والتوكل من أسباب العصمة من إغواء الشيطان، كما تدل آيات الحجر والنحل. والناس يتفاوتون في تحقيق ذلك بتفاوت إيمانهم وعملهم.

ثم يحذر من تعلق يجعل رضى المرء وسخطه تابعين للمال والمتاع. فليست المشكلة في امتلاك المال، بل في أن يملكه المال، فيقدم طلبه على حق الله. والحرية التي يمنحها الإيمان أن تبقى الأشياء في مواضعها، وأن يكون ولاء القلب لخالقه.

قد نتوكل وأنت لا تزال تشعر بالخوف. لا تجعل اضطراباً عارضاً
حكماً بأن إيمانك باطل، بل استعن بالله، وعالج أسباب
الاضطراب، ورد نفسك إلى ما تقدر عليه. التوكل عبادة تتجدد في
المواقف، وتحتاج إلى صدق ومجاهدة.

يد تعمل وقلب يتوكل

تفتح باب رزق، وتراجع حساباً، وتتعلم مهارة، وتسأل عن علاج. هذه أسباب جعلها الله في حياة الناس، ويحتاج المسلم إلى تمييز مباحها ونافعها، وإلى إحسان ما يدخل فيه منها.

﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

[الجمعة: ١٠]

لا يصح أن يسمي الإنسان عجزه الاختياري توكلًا، ثم يحمل الآخرين أعباء كان يستطيع القيام بها. كما لا يصح أن يظن أن السبب يستقل بنتيجته، فيغفل عن الله الذي خلق الأسباب ومسبباتها.

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»

صحيح البخاري، الحديث ١٤٧١. ٧٦

ابن تيمية، قاعدة في المحبة - مقتطف وبيان^{٧٧}

«فالعالم بالعدل قبل فعل العدل.»

يدعو ابن تيمية إلى معرفة الخيرات والشرور ومراتبها، وإلى فهم الواقع مع معرفة الواجب؛ حتى يقدم المرء الخير الأرجح ويدفع الضرر الأكبر عندما تتعارض المصالح ولا يمكن جمعها. وهذه الموازنة تحتاج إلى علم وصدق وقدرة، ولا تبيح اختراع مصلحة تلغي حكماً معلوماً.

وإذا اجتمع في أمر خير وشر أعطي كل جانب حقه، بعيداً عن التعميم الذي يعمي عن التفاصيل. كما أن الأسماء الحسنة لا تغير حقائق الأعمال: فقد يسمى الظلم عدلاً، أو تسمى المعصية سياسة أو عبادة، فلا يزول قبورها بذلك.

والعلم مقصود للعمل، لكنه يحتاج إلى حسن النية؛ فقد يعرف الإنسان الخير فيمنعه، ويعرف الشر فيستعمل معرفته للإقدام عليه. لذلك تتكامل البصيرة مع محبة الحق والالتزام به، ويستعين المرء بأهل العلم فيما يشتهه عليه.

قد تفشل محاولة أحسنت أسبابها، وقد تنجح محاولة تعلم أنك قصرت فيها. فلا تجعل النجاح وحده برهاناً على صحة كل وسيلة، ولا تجعل الفشل وحده دليلاً على ضياع كل اجتهاد. راجع عملك بعلم وعدل، واستغفر من تقصيرك، وتعلم ما ينفعك.

للمال في حياة المؤمن وظيفة؛ ينفق على نفسه ومن يعول، ويؤدي حق الله، ويعين محتاجاً، ويحفظ كرامته عن سؤال لا يحتاج إليه. وقد يكون طلب الحلال شاقاً، فيحتاج إلى صبر من نوع لا تصفه الحكايات دائماً.

يقين يعرف قدره

قد يشواق القلب إلى علامة خاصة تطمئننه أنه مقبول، فيتعلق بمنام أو مصادفة أو خاطر. لكن اليقين الذي يبني عليه الدين مرده إلى الوحي، وما صح من خبر الله ورسوله، لا إلى إحساس يجعل صاحبه عالماً بالغيب.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾^ج

[النمل: ٦٥]

تعرف أن الله يسمع دعائك، ولا تعرف من نفسك أنك بلغت منزلة بعينها. تعرف أن التوبة باب عظيم، وترجو أن تكون صادقاً فيها. تعرف أن الله يحب المتقين، فتطلب التقوى، ولا تزكي نفسك بشهادة لا تملكها.

وفي خبر أويس القرني رحمه الله، الذي رواه مسلم، فضيلة ثابتة لرجل من التابعين، وذكر لبره بأمه. نأخذ الخبر كما جاء به الدليل، ولا نجعل شهرة الحكاية وحدها طريقاً لإثبات المقامات:

عن أسير بن جابر، قال:

كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر حتى أتى على أويس فقال أنت أويس بن عامر قال نعم. قال من مراد ثم من قرن قال نعم. قال فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم قال نعم. قال لك والدة قال نعم. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل».

فاستغفر لي. فاستغفر له. فقال له عمر أين تريد قال الكوفة. قال ألا أكتب لك إلى عاملها قال أكون في غبراء الناس أحب إلي. قال فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشrafهم فوافق عمر فسأله عن أويس قال تركته رث البيت قليل المتاع. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل».

فأتى أويسا فقال استغفر لي. قال أنت أحدث عهدا بسفر صالح فاستغفر لي. قال استغفر لي. قال أنت أحدث عهدا بسفر صالح فاستغفر لي. قال لقيت عمر قال نعم. فاستغفر له. ففطن له الناس فانطلق على وجهه. قال أسير وكسوته بردة فكان كلها رآه إنسان قال من أين لأويس هذه البردة

صحيح مسلم، الحديث ٢٥٤٢. ٧٨

الأمداد: الأعوان القادمون. وغبراء الناس: أخلاطهم ممن لا يشتهرون.

الذي ينفعك من سير الصالحين أن تقتدي بما صح من أعمالهم، وأن تتواضع لمعرفة الله بمن لا يعرفهم الناس. قد يكون حولك مؤمن خفي الذكر كثير الخير، فلا تحتقر أحدا لقلّة شهرته، ولا تجعل الشهرة ميزانا وحيدا للفضل.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان ٧٩

«فمن تحقق بمعاني الفاتحة علما ومعرفة وعملا وحالا فقد فاز من كماله بأوفر نصيب.»

يبين ابن القيم أن للإنسان قوة يعرف بها، وقوة يريد ويعمل بها. وتكمل معرفته بمعرفة ربه وأسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق إليه وآفاته، ومعرفة نفسه وعيوبها. ويكمل عمله بأداء حق الله بإخلاص وصدق واتباع، مع شهود فضل الله وتقدير النفس.

ويربط ذلك بالفتحة: أولها تعريف بالله وربوبيته ورحمته وملكه،
ووسطها إخلاص العبادة والاستعانة، ثم سؤال الهداية إلى الصراط
المستقيم. وفي آخرها استعاذة من طريق فساد العلم، ومن طريق
فساد القصد والعمل.

فالقارئ لا يسأل الهداية إلى معلومة فحسب، بل إلى معرفة صحيحة
وإرادة صادقة وفعل مستقيم. وهو محتاج إلى ربه في ذلك كله،
يعرف الطريق بمعونته، ويسلكه بمعونته، ويثبت عليه بمعونته.

امض في طاعتك على ما تعلم، واسأل عما تجهل. وإذا حدثت
نفسك بأنك قد أمنت عليها، فتذكر حاجتك إلى الثبات. وإذا
أخافتك حتى أوشكت أن تيأس، فتذكر سعة رحمة الله، وعد إلى
العمل.

الشكر حين تتسع الحياة

قد يتغير جدول الإنسان حين يكثر رزقه، ثم تتغير ذاكرته؛ يذكر اجتهاده، وينسى من أعانه، ويألف ما كان يدعو الله به طويلاً. هنا يكون الشكر حفظاً للحقيقة قبل أن يكون كلاماً باللسان.

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾

[النحل: ٥٣]

ومن القصص النبوية خبر الأبرص والأقرع والأعمى من بني إسرائيل. سألوا فأعطوا، ثم امتحنوا في النعمة. نقرأ الخبر فنرى كيف يكون تذكر الفقر سبباً للوفاء، وكيف يصير جحود الماضي باباً إلى البخل:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال أى شيء أحب إليك قال لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قدرني الناس. قال فمسحه فذهب عنه قدره وأعطني لونا حسنا وجلدا حسنا قال فأى المال أحب إليك قال الإبل - أو قال البقر شك

إسحاق - إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر - قال فأعطي ناقة عشراء فقال بارك الله لك فيها - قال - فأتى الأقرع فقال أى شيء أحب إليك قال شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قدرني الناس.

قال فمسحه فذهب عنه وأعطي شعرا حسنا - قال - فأى المال أحب إليك قال البقر. فأعطي بقرة حاملا فقال بارك الله لك فيها - قال - فأتى الأعمى فقال أى شيء أحب إليك قال أن يرد الله إلى بصري فأبصر به الناس - قال - فمسحه فرد الله إليه بصره. قال فأى المال أحب إليك قال الغنم. فأعطي شاة والدا فأنجب هذان وولد هذا - قال - فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم.

قال ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري. فقال الحقوق كثيرة. فقال له كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذك الناس فقيرا فأعطاك الله فقال إنما ورثت هذا المال كبرا عن كبري. فقال إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. قال وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد على هذا فقال إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

قال وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الجبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري فقال قد كنت أعمى فرد الله إلى بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته لله فقال أمسك مالك فإنما ابتليتكم فقد رضي عنك وخط على صاحبيك»

صحيح مسلم، الحديث ٢٩٦٤. ٨٠

ناقة عشراء: حامل. وانقطعت بي الجبال: انقطعت أسباب الوصول. ولا أجهدك: لا أشق عليك.

لا يقصد من القصة أن نحكم على كل غنى أو فقر بما لا نعلم، وإنما نتعلم أن العطاء امتحان، وأن رد الفضل إلى الله وحفظ حق المحتاج من شكر النعمة. وقد يملك اثنان الشيء نفسه، ويختلف أثره في قلبيهما اختلافاً كبيراً.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٨١}

«النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة وهو فيها لا يشعر بها.»

هذا التقسيم يوسع نظر الشاكر. فنعمة الحاضر تستدعي الاعتراف وحسن الاستعمال، والنعمة المرجوة تستدعي السعي المشروع والرجاء، والنعمة الخفية تستدعي الانتباه والتأمل. وقد يعيش الإنسان في أمن أو عافية أو صحة صالحة حتى يألفها فلا يعود يراها.

ثم يذكر آفة قد تعرض للإنسان حين يطلب نعمة غائبة فيغفل عن نعمته الحاضرة:

ابن القيم، الفوائد - مقتطف وبيان^{٨٢}

«وليس على العبد أضر من ملله لنعم الله.»

يحذر ابن القيم من ضيق يسببه الاعتياد: يملك الإنسان نعمة ثم يملها، ويتخيل أن الخير كله في غيرها، حتى يزهد فيما يصلحه دون بصيرة. وقد لا يعرف قيمتها إلا بعد فقدها.

ويدعو إلى الاستخارة والتفويض عند طلب الانتقال؛ فالمرء لا يحيط بمصلحته، فيسأل ربه حسن الاختيار ويأخذ بالأسباب. وهذا لا يمنع تطوير العمل أو تغيير حال مؤذية، ولا يجعل كل رغبة في التحسن جحوداً. المقصود أن يكون القرار عن نظر وشكر، لا عن سخط أعمى ومقارنة لا تنتهي.

سمّ نعمك لتعرف حقوقها. للعلم تعليم وعمل، وللمال زكاة ونفقة وإحسان، وللعافية استعمال في الخير، وللوقت حفظ عما يفسده. ومن الشكر أن تتعلم كيف تصون النعمة، لا أن تبددها ثم تكتفي بعبارة الحمد.

أن تبذل مما تحب

يسهل أن تعطي ما استغنيت عنه، ويشق أحياناً أن تخرج شيئاً تحبه. وليس كل بذل مطلوباً بالصورة نفسها؛ للواجب حقه، ولمن تعول حقهم، وللنفل موضعه، والعبد يتعلم ترتيب هذه الحقوق.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

[آل عمران: ٩٢]

ومن أخبار أبي طلحة رضي الله عنه بذله أحب أمواله إليه حين نزلت هذه الآية. وفي توجيه النبي ﷺ له عناية بموضع الصدقة وبحق الأقربين:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبله المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس فلما أنزلت هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله. إن الله تبارك وتعالى يقول

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلى يبرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعتها يا رسول الله حيث أراك الله.

قال فقال رسول الله ﷺ «بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه

صحيح البخاري، الحديث ٨٣٠١٤٦١

يبرحاء: حديقة نخل لأبي طلحة.

وفي خبر ضيف رسول الله ﷺ الذي استضافه رجل من الأنصار صورة أخرى من الإيثار، بقيت محفوظة في السنة، يعلمنا فيها الوحي ما لا تصنعه الخطابة وحدها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه فقالت والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال «من يضيف هذا الليلة رحمه الله». فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته هل عندك شيء. قالت لا إلا

قوت صبياني. قال فعلليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فأطفي السراج وأريه أنا نأكل فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه.

قال فتعدوا وأكل الضيف. فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»

صحيح مسلم، الحديث ٨٤٠٢٠٥٤

مجهود: أصابه الجوع والمشقة.

لا تقرأ مثل هذه الأخبار لتحقر كل ما دونه، بل لتعرف سعة أبواب الخير. قد تكون صدقتك اليوم أقل مما تتمنى، لكنك تستطيع أن تصدق فيها، وأن تحفظها من المن والأذى، وأن تؤدي معها ما وجب عليك.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{٨٥}

«فالإيثار ضد الشح»

يفرق ابن القيم بين الشح الذي يشتد به التعلق بما في اليد وما عند الآخرين، وبين البذل الذي تغلب فيه الرحمة. ويعرض مراتب للسخاء والجود والإيثار، أعلاها أن يقدم المرء غيره في شيء يحتاج إليه، كما أثنى القرآن على الأنصار [الحشر: ٩].

ومن السخاء أن تستغني النفس عما في أيدي الناس، فلا تطمع في عطاءهم ولا تستكثر ما صار إليهم. ومنه أن تبذل بلا من، وألا تحول معروفك إلى مطالبة دائمة بالمقابلة.

ومما ينبغي حفظه أن الإيثار لا يحمّد إذا أضاع واجباً متعيناً، أو استعمل مالا ليس لصاحبه أن يتصرف فيه. حسن القصد يحتاج إلى حسن الفقه؛ ولهذا لا يستوي البذل المنضبط بالحقوق مع اندفاع يندم عليه صاحبه ويضر به من يعول.

إذا خرج المال من يدك في حقه، فلا تتبعه بقلب يطلب أن يملك من أخذه. دعه يذهب حيث أردت له من نفع، واسأل الله القبول. وربما وجدت بعد ذلك خفة لا سببها قلة المال، بل قلة ما يملك المال من نفسك.

الأنس الذي يصحبك

قد تنفرد بنفسك فتسكن، وقد تكون بين الناس وقلبك مطمئن إلى ربه. وقد تمر عليك ساعة تشعر فيها بالوحشة، فتحتاج إلى ذكر ودعاء وصحبة نافعة. لا تجعل حالاً واحدة تعريفاً ثابتاً لا يمانك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«قال الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ومن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإذا أقبل إلى يمشي أقبلت إليه أهول»

صحيح مسلم، الحديث ٢٦٧٥.^{٨٦}

الأنس بالله معنى يتصل بحبة ذكره وطاعته ورجاء رحمته، ويحفظ فيه المؤمن تنزيه ربه عن مشابهة خلقه. فلا يحمل ألفاظ القرب والمعية على خيال حسي، ولا ينشئ منها عقيدة من عند نفسه.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{٨٧}

«والأنس ثمرة الطاعة والمحبة.»

يشرح ابن القيم منزلة الأُنس بالله عند تفسير كلام الهروي، ويصلها بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فاستحضار لطف الله وإحسانه وإجابته يبعث في القلب المحبة والهيبة والطمأنينة.

وفي «الفوائد» كلمة عن الأُنس بين الناس وفي الخلوة، تذكرنا أن صلاح القلب لا يقتضي عجز صاحبه عن أداء ما يلزمه بين الخلق:

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٨٨}

«فكن مع مراده منك، ولا تكن مع مرادك منه.»

يدعو ابن القيم إلى حفظ الصلة بالله في الخلوة وبين الناس معاً. فمن انتفع بالخلوة أخذ نصيبه منها، ومن فتح له في تعليم الناس وخدمتهم قام بذلك، والأكل أن يدور مع العمل الذي يرضي الله في موضعه.

والمعنى ألا يتحول اختيار حال مريحة للنفس إلى قيد يصد عن حق لازم. قد يكون جمع القلب في سجدة، وقد يكون صدق العبودية في رعاية والد أو إغاثة محتاج. ولا نحكم على مصير إنسان من مقدار ما يصفه من الأُنس؛ فالأحوال تثقل، والميزان الإيمان والتقوى والعمل.

وهذه عبارات في تربية القلب والحث على حياته، لا شهادة على شخص بعينه بالقبول أو الطرد. فلا يحكم المسلم على نفسه بالهلاك لأنه فقد شعوراً اعتاده، ولا يجعل عارض الحزن أو الوحشة ميزاناً وحيداً لإيمانه. يرجع إلى طاعة الله، ويطلب العلم والعون، ويرجو رحمته.

قد تحب وقتاً تنفرد فيه للقراءة، ثم يأتيك واجب لأهلك فيقطعه. انظر إلى ما يرضي الله في وقتك، ولا تجعل لذتك الخاصة بالعبادة سبباً للتبرم بحق أوجهه عليك. من أحب الله أحب طاعته حيث كانت، ولو خالفت ما تستريح إليه نفسه.

الباب ٧

وكل الذي فوق التراب تراب

حقبة المسافر

من يستعد لسفر يعرف أن كل ما يحبه في بيته لا يمكن أن يصحبه. يختار ما يحتاجه، ويزن ما يحمله، وينظر إلى المقصد. والمؤمن يحتاج إلى هذا الوعي وهو يعيش أيامه؛ يعرف أنه مقيم إلى أجل، وأن بعد الإقامة انتقالاً.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال:

أخذ رسول الله ﷺ بمنكي فقال «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل». وكان ابن عمر يقول إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك

صحيح البخاري، الحديث ٨٩٠٦٤١٦

لا يدعوك الحديث إلى أن تعيش بلا أهل أو عمل أو مسؤولية، بل إلى ألا تنسى الرحيل وأنت تقوم بذلك كله. تبني ما ينفع، وتؤدي ما عليك، ولا تجعل امتداد الأمل حجة لتأجيل التوبة.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

[الكهف: ٤٦]

وفي «مدارج السالكين» تفصيل لحقيقة الزهد، وما يميزها من مجرد الصورة الظاهرة أو قلة المال. فمن الناس من تقل يده وتشتد رغبته، ومنهم من يملك ويؤدي الحق ولا يجعل الدنيا غايته:

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{٩٠}

«والكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذوق، وأقرب إلى الحجة والبرهان.»

يفتح ابن القيم منزلة الزهد بآيات تقابل فناء الدنيا ببقاء الآخرة، ثم يجمع عبارات أهل العلم فيها. وينقل عن ابن تيمية تعريفاً جامعاً: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يخاف ضرره فيها. فالمعيار أثر الشيء على المصير، لا خشونة المظهر وحدها.

ويذكر أن الزهد يبدأ بترك الحرام، ثم يتسع إلى فضول الحلال وما يشغل عن الله. وليس معناه تحريم المباح أو إضاعة المال؛ فقد يجتمع مع الملك والعمل والإنفاق، متى سلم القلب من العبودية لما يملك.

وتتناول حقيقته التعلق بالمال والصور والرئاسة وثناء الناس وحفظ النفس. فقد يترك المرء مالاً ويظل أسيراً للمدح، أو يقل متاعه ويشتد حسده. ولهذا يحتاج إلى محاسبة قلبه كما ينظر في ممتلكاته.

قد يظهر زهدك في أنك ترك حراماً يكثر معه المال، أو تحسن استعمال مباح دون إسراف، أو لا يفسد قلبك ما أوتي غيرك. وربما لم يختلف ظاهر بيتك كثيراً، لكن الذي يختلف هو مقدار ما تستطيع أن تضحي به من دينك لأجل بقاءه.

وفي «الفوائد» ذكر لأنواع الزهد، يبدأ بترك الحرام، ثم يتدرج في فضول ما يشغل القلب:

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٩١}

«وأفضل الزهد إخفاء الزهد، وأصعبه الزهد في الحظوظ.»

يفصل ابن القيم مراتب الزهد بحسب متعلقه: فترك الحرام لازم، والاحتياط للشبهة يقدر بقدر قوتها، وترك الفضول وما لا يعني يحرر الوقت والقلب. ثم يبلغ النظر حظوظ النفس؛ فلا يقصد المرء بمنزلته عند الناس ما تركه من متاعهم.

وإخفاء الزهد يصون صاحبه من تحويله إلى عرض يطلب به الثناء. ليس عليه أن يحصي للناس ما حرم نفسه منه، بل أن ينتفع بالمباح في طاعة الله، ويترك ما يضره، ويحفظ قلبه من التعلق الذي يضعف إخلاصه.

رتب حقيبتك وأنت تمضي: ما حق الله في مالك ووقتك؟ ما الدين الذي ينبغي أن تقضيه؟ ما العمل الذي تؤجله وكأنك ضمنت وقتاً آخر؟ لا تحتاج أن تكره الحياة كي تستعد للموت، بل أن تحسن حياتك بما ينفعك بعده.

تملك المال ولا يملكك

قد يكون للمال في يدك أثر مبارك: يكفك عن السؤال، ويعينك على نفقة واجبة، ويفتح لك إحساناً لا تقدر عليه بدونه. وفي السنة بيان لما يؤجر عليه المسلم من نفقة على أهله، حتى ما يضعه في فم امرأته إذا ابتغى به وجه الله.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال:

كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي فقلت إني قد بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفأصدق بثلاثي مالي قال «لا». فقلت بالشطر فقال «لا» ثم قال «الثلث والثلث كبير أو كثير إنك أن تذر ورثك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها، حتى ما تجعل في في امرأتك». فقلت يا رسول الله، أخلف بعد أصحابي قال «إنك لن تخلف فتعمل عملاً صالحاً إلا ازددت به درجة ورفعة، ثم لعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون، اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم، لكن البائس سعد ابن خولة».

يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة

صحيح البخاري، الحديث ٩٢٠١٢٩٥

في في امرأتك: في فيها.

والمال أمانة، ومن أمانته قضاء الدين. وفي خبر الزبير رضي الله عنه ووصيته لابنه عبد الله عناية بهذا الحق، وما بذله الابن في الوفاء بدين أبيه:

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، قال:

لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني، فقممت إلى جنبه فقال يا بني، إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأقتل اليوم مظلوما، وإن من أكبر همي لديني، أفترى يبقي ديننا من مالنا شيئا فقال يا بني بع مالنا فاقض ديني. وأوصى بالثلث، وثلثه لبنيه، يعني عبد الله بن الزبير يقول ثلث الثلث، فإن فضل من مالنا فضل بعد قضاء الدين شيء فثلثه لولدك. قال هشام وكان بعض ولد عبد الله قد وازى بعض بني الزبير خبيب وعباد، وله يومئذ تسعة بنين وتسع بنات.

قال عبد الله فجعل يوصيني بدينه ويقول يا بني، إن عجزت عنه في شيء فاستعن عليه مولاي. قال فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت يا أبت من مولاك قال الله. قال فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت يا مولى الزبير، اقض عنه دينه. فيقضيه، فقتل الزبير رضي الله عنه ولم يدع دينارا ولا درهما، إلا أرضين منها

الغابة، وإحدى عشرة دارا بالمدينة، ودارين بالبصرة، ودارا بالكوفة، ودارا بمصر. قال وإنما كان دينه الذي عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير لا ولكنه سلف، فإني أخشى عليه الضيعة، وما ولي إمارة قط ولا جباية خراج ولا شيئا، إلا أن يكون في غزوة مع النبي ﷺ أو مع أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم قال عبد الله بن الزبير فحسبت ما عليه من الدين فوجدته ألفى ألف ومائتي ألف قال فلقي حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير فقال يا ابن أخي، كم على أخي من الدين فكتمه.

فقال مائة ألف. فقال حكيم والله ما أرى أموالكم تسع لهذه. فقال له عبد الله أفرايتك إن كانت ألفى ألف ومائتي ألف قال ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي. قال وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف، فباعها عبد الله بألف ألف وستمائة ألف ثم قام فقال من كان له على الزبير حق فليوافنا بالغابة، فأتاه عبد الله بن جعفر، وكان له على الزبير أربعمائة ألف فقال لعبد الله إن شئتم تركتها لكم. قال عبد الله لا.

قال فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون إن أخرتم. فقال عبد الله لا. قال قال فاقطعوا لي قطعة. فقال عبد الله لك من ها هنا إلى ها هنا. قال فباع منها فقطضى دينه فأوفاه، وبقي منها أربعة أسهم ونصف، فقدم على معاوية وعنده عمرو بن عثمان والمنذر بن

الزبير وابن زمعة فقال له معاوية كم قومت الغابة قال كل سهم مائة ألف. قال كم بقي قال أربعة أسهم ونصف. قال المنذر بن الزبير قد أخذت سهما بمائة ألف. قال عمرو بن عثمان قد أخذت سهما بمائة ألف.

وقال ابن زمعة قد أخذت سهما بمائة ألف. فقال معاوية كم بقي فقال سهم ونصف. قال أخذته بخمسين ومائة ألف. قال وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بستمائة ألف، فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه قال بنو الزبير أقسم بيننا ميراثنا. قال لا، والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه. قال فجعل كل سنة ينادي بالموسم، فلما مضى أربع سنين قسم بينهم قال فكان للزبير أربع نسوة، ورفع الثلث، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف

صحيح البخاري، الحديث ٩٣٠٣١٢٩

لا يصح أن يفيض اللسان بالكلام على الزهد، ثم يستخف بحق دائن أو أجير أو شريك. حق الناس في المال لا يزول لأن صاحبه يحب المواعظ أو يكثر النوافل. وقد يكون إخلاصه اليوم في أن يحسب بدقة ويعترف بما عليه.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا
وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

[القصص: ٧٧]

وفي «الفوائد» تقسيم للدراهم باعتبار اكتسابها وإنفاقها؛ فيرد النظر
من مقدار المال إلى طريقه ومصرفه:

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٩٤}

«وكما يتعلق الثواب والعقاب والمدح والذم بإخراج الدرهم،
فكذلك يتعلق باكتسابه.»

ينظر ابن القيم إلى المال من جهتي اكتسابه وإنفاقه. فالمال الطيب
الذي يبذل في حق خير، والمال الذي يجتمع فيه كسب محرم
وإنفاق محرم يجمع تبعتين، والمباح الذي يستعمل في مباح يبقى على
أصله، وقد يؤثر صاحبه بنيته الصالحة.

ولا يصلح حسن المصرف فساد المصدر. وما تعلق به حق لآدمي،
كالمسروق أو مغصوب، يجب رده إلى صاحبه أو ورثته عند
القدرة؛ فلا يصير حلالاً بالتصدق به. وأما صور الأموال المحرمة أو
المشتبهة التي يتعذر ردها فلها تفصيل يرجع فيه إلى أهل العلم.
ويبقى السؤال الذي يوقظ الضمير: من أين جاء المال، وفيه
استعمل؟

قد تخشى المستقبل فتدخر، وهذا في أصله مما ينظر فيه إلى الحال والحاجة والحقوق. لكن الخوف لا يبيح البخل بواجب، ولا جمع المال من حرام. احسب ما تستطيع، وخذ بالأسباب، واعلم أن الغنى الذي يحفظ القلب لا تصنعه الأرقام وحدها.

وكلما زاد ما في يدك، حسن أن تتذكر من سبقوا إلى الإيمان، وما كانوا عليه من بذل وصبر. ليست الذاكرة هنا باب جلد للنفس، بل باب شكر ومحاسبة.

حين نتذكر مصعباً

قد يأتي الطعام فتذكر به نعمة، وقد يوقظ في قلبك ذكرى من سبقك إلى الله. وفي خبر عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه ذكر مصعب بن عمير وحمزة رضي الله عنهما، وما كان من حالهما، ثم بكى.

عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف:

أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتى بطعام وكان صائماً فقال قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة، إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه وأراه قال وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام

صحيح البخاري، الحديث ١٢٧٥. ٩٥

وفي رواية خباب رضي الله عنه خبر مصعب يوم أحد، وما وجدوا من ثوب يكفونه فيه. هذه التفاصيل القليلة تكفي لترد القلب إلى معنى البذل، دون أن نضيف وصفاً متخيلاً لمشاعر لم ينقلها أصحابها:

قال خباب بن الأرت رضي الله عنه:

هاجرنا مع النبي ﷺ نريد وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مضى، لم يأخذ من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد، وترك ثمرة، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجله بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه، ونجعل على رجله شيئاً من إذخر. ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها

صحيح البخاري، الحديث ٣٨٩٧. ٩٦

الثمره: كساء من صوف. والإذخر: نبات طيب الرائحة. وأينعت: نضجت. ويهدبها: يجتنيها.

لا نقرأ هذه الأخبار لنحرم ما أحل الله من الطيبات، ولا لنجعل ضيق العيش فضيلة لازمة لكل حال. إنما نتعلم أن الإيمان قد يطلب من صاحبه بذلاً كبيراً، وأن النعمة إذا جاءت بعد ذلك احتاجت إلى شكر وخوف من التقصير.

﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتره مصفراً ثم يكون حطماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضون وما الحياة الدنيا إلا متع الغرور﴾

[الحديد: ٢٠]

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان ٩٧

«فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات.»

يشرح ابن القيم الزهد في الفضول بأنه ترك ما يزاحم المقصود من زيادة لا حاجة إليها، ليتفرغ الإنسان لما ينفعه. والحاجة تشمل ما يقيم البدن والحياة من طعام ومسكن ولباس وراحة وحقوق زوجية، وليست دعوة إلى تخفيف الحياة من المباح.

فإذا أخذ الإنسان راحته وطيب عيشه بنية الاستعانة على ما يحب الله كانت من عمارة وقته. ثم يبين أن زهد القلب أهم من خلو اليد: قد يباشر المال والعمل، ولا يضطرب قلبه في طلبهما أو فقدهما اضطراب من جعل الدنيا غايته.

حين تذكر مصعباً، انظر إلى شيء في حياتك صار أعظم من حجمه. ربما كان مظهرًا تتعب من أجله، أو مقارنة لا تنتهي، أو طلب زيادة يستهلك حق أهلك وعبادتك. تستطيع أن تخفف منه، وأن ترد ما بقي إلى قصد صالح.

ما لا تأخذه الأرض

إذا قيل: «وكل الذي فوق التراب تراب»، فالمعنى الذي ينتفع به القلب هو التذكير بفناء متاع الدنيا وضعف التعلق به. أما إنكار البعث، أو زعم أن الإنسان ينتهي بلا حساب، فمخالف لما جاء به الوحي.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

[يس: ٧٨]

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

[يس: ٧٩]

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

[الزلزلة: ٧]

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

[الزلزلة: ٨]

لأعمالك مآل، ولكلماتك حساب، وما قدمته من خير لا يضيع عند الله. وهذا يجعل ذكر الموت دافعاً إلى العمل، لا سبباً للاستخفاف بالحياة. إن الدقيقة التي تمضي تستطيع أن تجعل فيها إصلاحاً يبقى أثره.

وفي «الفوائد» شرح لسورة ق وما تضمنته من المبدأ والمعاد، ومن علم الله وقدرته على إعادة الخلق:

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{٩٨}

«الحفيظ الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب المقبل على الله بطاعته.»

يقراً ابن القيم سورة ق بوصفها عرضاً لأصول الإيمان: الخلق والبعث، والتوحيد والنبوة، وعلم الله، وكتابة الأعمال، ومصير المكذبين والمتقين. ويبين أن البعث عودة الإنسان نفسه للجزاء، لا خلق شخص آخر يحمل تبعته.

وتقوم براهين المعاد في شرحه على كمال العلم والقدرة والحكمة: يعلم الله ما تنقص الأرض من الأجساد، والذي أنشأ الخلق أول مرة قادر على إعادتهم، والحياة لا تنتهي إلى عبث يستوي فيه البر والفجور. ويدعو القرآن إلى النظر في السماء والأرض، وفي الماء الذي تحيا به الأرض بعد موتها، وفي خلق الإنسان نفسه.

ثم تنتقل السورة من الدليل إلى المشهد: مراقبة الأقوال، وسكرة الموت، والنفخ في الصور، والسائق والشهيد، وانكشاف ما غفل عنه الإنسان. ويشرح ابن القيم بعض اختلاف المفسرين في القرين والخطاب، مع اتفاق المعنى العام على تمام العلم والعدل والمسؤولية؛ فلا يضيع عند الله قول ولا عمل.

ويقابل صفات المعاند المانع للخير المعتدي بصفات أهل الجنة الأربع: الأبواب الذي يرجع، والحفيظ الذي يصون ما استؤمن عليه، ومن يخشى الرحمن بالغيب، ومن يأتي بقلب منيب. فالاستعداد للقاء يجمع رجوعاً بعد الزلزل، وحفظاً للحدود، وخشية في الخفاء، وإقبالاً صادقاً.

وتختتم السورة بالصبر والتسبيح والتذكير بالقرآن لمن يخاف الوعيد. فلا يبقى الحديث عن الآخرة صورة بعيدة؛ إنه يوقظ الحاضر، ويحمل القارئ على إصلاح قوله وعمله، مع رجاء السلام والخلود والمزيد الذي وعد الله به عباده.

قد يغيب عن الناس معروف فعلته، وقد تموت قبل أن ترى ثمرته. لا يضيع بذلك علم الله به. وقد تخفي كلمة ظلم، لكن خفاءها عن الناس لا يمحوها. معرفة الآخرة تصلح العمل الذي لا جمهور له، كما تصلح ما يراه الجميع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»

صحيح مسلم، الحديث ١٦٣١، ٩٩

فكر فيما تستطيع أن تتركه من نفع: علم صحيح، أو صدقة جارية مستوفية لحقوقها، أو تربية صالحة، أو إصلاح بين ناس. لا تنسب إلى نفسك ضمان بقاء الأثر، بل ابذل السبب واسأل الله القبول والبركة.

نعيم ترجو بلوغه

وصف الله الجنة في كتابه، وبشر بها عباده، وذكر من نعيمها ما يوقظ الرجاء. فالؤمن يحب ما وعده الله، ويسأله الفوز به، ويرجو رضوانه ورؤيته كما جاء في النصوص، من غير تكلف في وصف ما غاب عنه.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[السجدة: ١٧]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخرا، بله ما أطلعتم عليه». ثم قرأ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

صحيح البخاري، الحديث ٤٧٨٠. ١٠٠

بله ما أطلعتم عليه: غير ما عرفتم من النعيم، وفوقه.

وقد يحتاج القارئ إلى تحرير عبارة توهم أن سؤال الجنة نقص في محبة الله. الأنبياء والمؤمنون دعوا ربهم بالنجاة والفوز، ووعد الله بالجنة من أعظم ما يدعو إلى طاعته. والمحبة والخوف والرجاء تجتمع، ولا يلغى بعضها باسم بعض.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{١٠١}

«فإن الخوف المجرد عن الأمن من كل وجه لا ينبعث صاحبه لعمل ألبته إن لم يقارنه أمل.»

يشرح ابن القيم شوق العابد إلى الجنة من ثلاث جهات: رجاء الأمن للخائف، والفرح للحزين، والظفر للآمل. فالخوف إذا انفصل عن الرجاء تحول إلى قنوط يعطل السعي، والحزن إذا استولى دون فسحة فرح أضعف القوة.

ووعد الجنة يرد إلى الطريق توازنه: يخاف المؤمن تقصيره، ويرجو رحمة ربه، ويعمل منتظراً فضله. ولا يطلب منه أن يسير بالرهبة وحدها؛ ففي الرجاء حياة للعزم، وفي انتظار لقاء الله ما يهون طول التعب.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{١٠٢}

«الشوق إلى الله لا ينافي الشوق إلى الجنة.»

يبين ابن القيم أن من أعظم نعيم الجنة رضوان الله ورؤيته؛ فلا تعارض بين طلب الجنة والمحبة الصادقة لله. وإنما تتفاوت المقاصد: من اقتصر نظره على بعض نعيمها ليس كمن امتلأ قلبه بطلب رضى ربه وقربه، مع إيمانه بجميع ما وعد به.

وقد تنشأ المحبة من شهود الإحسان والامن، وتزداد بمعرفة أسماء الله وصفاته وكلامه. وهذه المعرفة تعمق الشوق وتصحح معناه. فلا يحتقر المسلم دعاءً مشروعاً بالجنة، ولا يجعل المحبة دعوى يستغني بها عن العمل والخوف والرجاء.

ومن أخبار الصحابة خبر عمير بن الحمام رضى الله عنه يوم بدر، حين سمع البشارة بالجنة، وفيه رجاء صادق وبذل في موضعه الذي شهدته السنة:

عن أنس بن مالك رضى الله عنه، في خبر غزوة بدر:

فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ «لا يقدم أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه». فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». قال يقول عمير بن الحمام الأنصاري يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض قال «نعم». قال بنح بنح. فقال رسول الله ﷺ «ما يملك على قولك بنح بنح». قال لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال «فإنك من أهلها».

فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة - قال - فرمى بما كان معه من التمر. ثم قاتلهم حتى قتل

صحيح مسلم، الحديث ١٩٠١؛ مقتطف من الحديث ١٠٣.

قرنه: جعبة سهامه.

وفي جواب النبي ﷺ لأم حارثة رضي الله عنها بشرى تملأ القلب رجاء، مع التزامنا بما ثبت له من فضيلة بالنص:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

أن أم الربيع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة، صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»

صحيح البخاري، الحديث ١٠٤٠٢٨٠٩

نأخذ من هذه الأخبار صدق الرجاء والاستجابة لله ورسوله، ولا ننقل أحكام وقائع الجهاد إلى تصرفات فردية بغير علم وشرع. لكل باب أحكامه، وطاعة الله تلزمها البصيرة كما يلزمها صدق القصد.

وأنت في عملك اليومي تستطيع أن تحمل رجاء الجنة إلى صلاة تحسنها، وحق تؤديه، ومعصية تتركها. ليست الآخرة بعيدة عن تفاصيل يومك؛ أنت تقدم إليها بما تفعل الآن.

على باب اللقاء

قد يشْتَاق المؤمن إلى لقاء الله، ثم يخاف الموت لما يعرف من تقصيره، أو لما في مفارقة المألوف من رهبة. وقد بينت السنة معنى محبة اللقاء، وميزته مما تجده النفوس من كراهة الموت بطبعها.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». فقلت يا نبي الله أكرهية الموت فكلنا نكره الموت فقال «ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه»

صحيح مسلم، الحديث ١٠٥٠٢٦٨٤

فلا تجعل الحديث حجة لتتني الموت بسبب ضرر نزل بك. وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، وعلم من غلبه الأمر أن يفوض إلى الله ما هو خير له:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلا فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفي إذا كانت الوفاة خيرا لي»

صحيح البخاري، الحديث ١٠٦٠٥٦٧١

تحب لقاء الله فتستعد، وتسأل حسن الخاتمة، وتصلح ما بقي من عملك. وتبقى في الحياة قائماً بما تستطيع من خير، شاكراً ما فيها من فرصة للتوبة والإحسان. لا يعلم العبد أي يوم يفتح له فيه باب نفع لم يكن يتوقعه.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

[العنكبوت: ٥]

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان ١٠٧

«من منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة الشوق.»

يفتح ابن القيم هذا الباب بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]. ويرى في التذكير بالأجل تسلية لمن يرجو اللقاء؛ فالوعد آت، والانتظار لا يضيع عند الله.

والشوق الذي ينفع صاحبه يدعوه إلى الاستعداد، وإصلاح ما بينه وبين ربه، والصبر حتى يأتي أجله. تظهر ثمرته في صدق المحبة وحسن العمل ورجاء اللقاء على حال يرضاها الله.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{١٠٨}

«والشوق أثر من آثار المحبة، وحكم من أحكامها.»

يربط ابن القيم قوة الشوق بقوة المحبة، ويعرض اختلاف أهل السلوك في بقاءه عند اللقاء: فمنهم من نظر إلى سكون الانتظار، ومنهم من رأى أن القرب يزيد الشوق لمعرفة المحبوب. وهذه أوصاف لأحوال المحبة، لا أصول غيبية ثبتت بمجرد التجربة.

وأما دعاء يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] فيحمل على سؤال الوفاة على الإسلام وحسن العاقبة، ولا يتخذ إذناً لتمني الموت بسبب الضر. وقد بين الحديث السابق ما يقوله من اشتدت عليه الحال: يفوض إلى الله اختيار الحياة والوفاة.

فتظهر المحبة في حسن الاستعداد وطول الطاعة، مع الرضا بالأجل الذي يقدره الله. وكل يوم يبقى للمرء فرصة لتوبة أو بر أو إصلاح حق، وهو من زاده للقاء الذي يرجوه.

إذا حضرتك ذكرى الموت، فاسأل عن حق تستطيع أن تؤديه اليوم.
ربما كان ديناً، أو وصية تحتاج إلى ضبط، أو اعتذاراً، أو توبة من
معصية. بهذا يصير الذكر عملاً، ويخرج من مجرد الانفعال إلى
الاستعداد.

الباب ٨

حتى آخر الطريق

لا نهاية للعبودية

قد يظن الإنسان أن الطريق إلى الله مراحل ينتهي بعدها التعب، وأنه إذا عرف معاني المحبة والرضا واليقين استغنى عن المجاهدة التي يحتاجها سائر الناس. لكن المعرفة الصادقة تزيده علماً بفقره، وترده إلى دوام الطاعة.

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

[الحجر: ٩٩]

العبد عبد ما بقي في دار التكليف. لا تسقط عنه الصلاة بدعوى حال، ولا يباح له محرم لأنه يزعم قرباً خاصاً، ولا يغنيه شعوره عن الوحي. وفي سيرة رسول الله ﷺ دوام عبادة وشكر واستغفار، وهو أكرم الخلق على ربه.

ابن القيم، مدارج السالكين - مقتطف وبيان^{١٠٩}

«فالعبودية تجمع كمال الحب في كمال الذل، وكمال الانقياد لمراضي المحبوب وأوامره.»

يقرر ابن القيم أن غاية الطريق تكميل العبودية والتوبة، لا الوصول إلى حال وجداني تسقط معه مسؤولية العمل. فجمع القلب الصحيح يكون على الله محبة وإناة وتوكلاً وخوفاً ورجاءاً، ويصحبه جمع الهمة على طاعته والقيام بحقوقه.

وتجمع الفاتحة هذا المقصد في العبادة والاستعانة: الله وحده المقصود بالعبادة، وهو المستعان على أدائها ظاهراً وباطناً. وكل منزلة صحيحة من منازل السير ثمرة لهذا الأصل أو طريق إلى تحقيقه.

ويؤكد أن التوبة أشد لزوماً كلما عرف الإنسان حق ربه وتقصيره؛ فلا يظن أن تقدمه يغنيه عن الاستغفار. ثم يضبط الاحتجاج بالذوق: وجود الشعور يدل على أن صاحبه يشعر به، لكنه لا يكفي للحكم بأن ما يحبه حق نافع. فالخبرة الوجدانية تعرض على الوحي، ولا تجعل حاكمة عليه.

وقد تبدل صورة ما تقدر عليه من عمل مع المرض أو الكبر أو تغير الأحوال، لكنك تسأل عما شرعه الله لحالك، وتعمل به. رخصة الله تؤخذ بعلم، وعزيمته تؤدي بعلم، والهوى لا يصير حكماً لأن صاحبه تعب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»

صحيح البخاري، الحديث ١١٠٣٩

الغدوة: أول النهار. والروحة: آخره. والدلجة: سير الليل؛ تمثيل للاستعانة بأوقات النشاط.

لا تحتاج أن تقدم لنفسك شهادة بأنك وصلت. يكفيك أن تستمر في الرجوع، وأن تحمد الله على ما يسر، وأن تستغفر من التقصير. كل يوم جديد يحمل باباً من هذه العبودية؛ في رخاء تشكر فيه، أو شدة تصبر فيها، أو ذنب تثوب منه، أو حق تؤديه.

الغني الشاكر والفقير الصابر

قد تنظر إلى من وسع عليه رزقه فتظن أن طريقه أسهل، وينظر هو إلى من خفت أعباءه فيظن أن قلبه أقرب إلى الطمأنينة. لكنك لا تعرف جميع امتحانات الآخرين، ولا تستغني عن معرفة الواجب الذي أمامك.

عن صهيب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»

صحيح مسلم، الحديث ٢٩٩٩. ١١١

الصبر والشكر ليسا اسمي فئتين لا تلتقيان. الغني يحتاج إلى الصبر، والفقير يجد نعمة يشكرها. وقد يجتمع في يوم واحد أمران: ما يحزن وما يسر، فيقوم العبد بحق الله فيهما بحسب استطاعته.

ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين - مقتطف وبيان^{١١٢}

«فأيهما أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل، فإن استويا في ذلك استويا في الفضيلة.»

ينقل ابن القيم هذا الترجيح عن ابن تيمية في المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر. فالغني والفقير حالان، وميزان الفضل الإيمان والتقوى. وقد يوجد في الأغنياء من يسبق فقراء، وفي الفقراء من يسبق أغنياء؛ لا يحسم مقدار المال منزلتهم عند الله.

ويناقش أدلة الفريقين، ويبين أن الصبر يشمل كف النفس عن المعصية وأداء الطاعة كما يشمل احتمال الفقر. وأن سبق بعض الفقراء إلى الجنة لخفة الحساب لا يلزم منه علو درجة كل فقير على كل غني. كما تتفاوت الصدقة بصدق الباذل وإخلاصه وحاجته، فلا يقاس الأجر بعدد الدراهم وحده.

ويفرق بين فقر المال ومسكنة القلب لله؛ فقد يكون الغني خاشعاً، والفقير متكبراً، وقد يجتمع الصبر والشكر في الحالين. لذلك يطلب الإنسان ما يصلح دينه ودنياه، ويحسن القيام بما أقامه الله فيه، ولا يتكلف الفقر ليكتسب اسماً أو منزلة عند الناس.

تخرج من هذه القراءة إلى معيار ينفعك: كيف تثقي الله في حالك؟ إن كنت ذا مال، فكيف اكتسبته وفيم أنفقته؟ وإن ضاق عليك، فكيف حفظت دينك وعفتك، وما الأسباب المباحة التي تستطيع الأخذ بها؟ ثم لا ترك نفسك على غيرك بسبب صورة حالك.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

[المحجرات: ١٣]

قد يكون السؤال عن الأفضل وسيلة للهرب مما يلزمك. لا تحتاج أن تحسم لنفسك مقاماً بين الناس كي تخرج زكاة، أو تطلب حلالاً، أو تصبر عن سؤال لا تحتاج إليه، أو تعين فقيراً. اعمل بما عرفت، ودع علم القلوب لمن خلقها.

وحيث تعجز عن الصورة التي تمنيتها لنفسك، يبقى الصدق في ضعفك باباً لا ينبغي أن تغلقه. الله يعلم حقيقتك قبل أن تحسن عرضها.

اصدق في ضعفك

قد ترسم لنفسك صورة لا تثعب ولا تغضب ولا تتردد، ثم تنفق جهدك في إخفاء المسافة بينك وبينها. ولو صدقت في ضعفك، لوفرت من هذا الجهد ما تستعين به على الإصلاح.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ^ج وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾

[النساء: ٢٨]

الاعتراف بالضعف لا يبيح المعصية، لكنه يعين على طلب العون. تستطيع أن تقول: أحتاج إلى من يذكرني، أو إلى علم أصح به عملي، أو إلى علاج، أو إلى تقليل سبب يفتني. لا يلزمك أن تحمل كل شيء وحدك كي تكون صادق التوكل.

ابن القيم، طريق الهجرتين وباب السعادتين — مقتطف وبيان ١١٣

«مقبل على شأنه، مكرم لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه.»

يرسم ابن القيم صورة للافتقار الصادق: تواضع، وسلامة قلب، وسرعة رجوع إلى الذكر، وصدق وعفة وحلم وإيثار. ومن علاماته أن يبذل النصيحة والخير دون أن يجعل ما قدمه ديناً من المدح في أعناق الناس، وأن يكف أذاه ويصون وقته ولسانه.

ولا يتوقف افتقاره على قلة المال أو على حال وجداني يحرص على استبقائه؛ فقد يملك ولا يعتمد على ملكه، ويعمل ولا يغتر بعمله. يطلب ما يرضي الله، ويستعين به، ويقاوم رغبة النفس في تحويل العبادة إلى طلب منزلة أو لذة خاصة.

ثم يقرر أصليين تقوم بهما حياة القلب: المقصود الذي يحبه ويعبده، والمعين الذي يعتمد عليه في بلوغ مقصوده. وتجمعهما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. فالله هو المعبود الحق، وهو الرب الذي يهدي ويعين ويرزق.

وحاجة القلب إلى معرفته ومحبه ليست عارضة تنتهي بقضاء حاجة دنيوية. قد ينتقل الإنسان بين لذات ثم يجد أن قلبه لا يستقر؛ فيعيده الافتقار إلى مصدر الهداية. والمقصود إخلاص العبادة لله، مع بقاء المحبة الطبيعية والأسباب المباحة في مواضعها، لا نفي كل صلة بالخلقين.

وقد يؤلمك أن ترى من نفسك ما لم تكن تظنه بها. لكن معرفة الداء خير من الإصرار على إنكاره. إذا رأيت حسدا فاستعد بالله وجاهد أثره، وإذا رأيت كبرا فارجع إلى حقيقة فقرك، وإذا رأيت رياء فصصح قصدك ولا تترك الخير بسببه.

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان^{١١٤}

«فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل.»

يميز ابن القيم بين قرار صادق يجمع الإرادة، وعمل صادق يبذل فيه المرء وسعه. فالعزيمة تحفظه من التردد الذي يعطل البداية، والجهد يحفظ عزيمته من أن تبقى أمنية جميلة.

ويجمع هذا الصديق صحة الإخلاص والتوكل. يحدد ما يريد به وجه الله، ويتعلم طريقه، ثم يبدأ بما يستطيع ويستعين بربه. وليس صدق الجهد ادعاء القدرة على كل شيء، بل الوفاء بما يقدر عليه من ظاهر العمل وباطنه، والرجوع كلما ظهر خلل.

لا تجعل المقارنة بالصالحين سبباً للقنوط. هم بشر أعانهم الله، وما صح من سيرهم يدعوك إلى الاقتداء، لا إلى ادعاء أنك مثلهم ولا إلى اليأس لأنك دونهم. الطريق أمامك بقدر ما بقي لك من عمر، والفضل بيد الله.

حين يصير الرجاء عملاً

في بعض البدايات نحب صورة الخطوة أكثر مما نحب الصبر عليها. نعد أنفسنا بتغيير واسع، ثم نثقلها حتى تنقطع. والهدى النبوي يردنا إلى السداد والمقاربة والاستمرار.

قال النبي ﷺ، في حديث عائشة رضي الله عنها:

«يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»

صحيح البخاري، الحديث ٥٨٦١؛ مقتطف من الحديث ١١٥.

ابدأ بواجب يحتاج إلى إصلاح، ثم بنافلة تستطيع مداومتها، ثم بخلق تجاهد نفسك عليه. ليس هذا ترتيباً تعبدياً مخصوصاً بعدد أو زمن، بل طريقة عملية لتنظيم ما علمت من واجبات ومستحبات. وتبقى الأحكام والفضائل مردها إلى الدليل.

قد تقرأ صفحة بتدبر، وتؤدي أمانة في وقتها، وترد كلمة قاسية، وتستغفر من ذنب. هذه الأعمال القرية، إذا صدقت فيها، تجعل ما قرأته في الكتاب حاضراً في يومك. وما فائدة أن تعرف اسم مقام لا تستطيع أن ترى له أثراً في اختيارك؟

ابن القيم، الفوائد - مقتطف وبيان^{١١٦}

«وصحة الاقتداء بالرسول لقاح الإخلاص، فإذا اجتمعا أثمر قبول العمل والاعتداد به.»

يجمع ابن القيم معاني يتكامل بعضها ببعض: الإيمان مع الطلب يثمر عملاً، والمحبة مع الخشية تثمر طاعة، واليقين مع الصبر يثبتان صاحبهما، والعلم مع العمل والحلم ينفعان، والبصيرة مع العزيمة تحولان المعرفة إلى سعي.

وكذلك تحتاج الشجاعة إلى صحة الرأي حتى لا تصير تهوراً، وتحتاج المهمة العالية إلى نية صحيحة، ويحتاج التوكل إلى التقوى، والاستعداد للقاء إلى قصر الأمل. فلا يكتفي السائر بقوة واحدة يمدحها في نفسه؛ بل يسأل عما يكملها ويهذبها. والحكمة أن يداوي موضع النقص الذي يمنع الخير الذي عنده من أن يثمر.

ابن القيم، الفوائد - مقتطف وبيان^{١١٧}

«وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب وإضاعة الوقت.»

يعد ابن القيم صوراً لضياع النعمة: علماً لا يعمل به، وعملاً يفقد الإخلاص أو الاتباع، ومالاً لا ينفع صاحبه في دنياه ولا يقدمه لآخرته، وقلباً وبدناً معطلين عن العبادة. ومنها محبة لا تثمر موافقة للمحبوب، ووقت وفكر يصرفان فيما لا ينفع، وخدمة لا تصلح ديناً ولا دنياً، وتعلق بالخوف والرجاء بما لا يستقل بنفع ولا ضرر.

ويرد أصل ذلك إلى إثارة العاجل وطول الأمل؛ فيؤجل الإنسان إصلاحه كأن أمامه عمراً مضموناً. ثم ينبه إلى مفارقة: يلح المرء في سؤال حاجاته، وينسى أن يسأل حياة قلبه وشفاءه من الجهل والشهوات والشبهات. فليجعل صلاح قلبه من أكبر مطالبه، ثم يترجم الدعاء إلى تعلم وعمل وتوبة.

راجع يومك مراجعة رفيقة وصادقة. ما الذي وفقك الله إليه فتحمده عليه؟ وما الذي أخطأت فيه فتستغفر وتصلح؟ وما السبب الذي تحتاج إلى تغييره؟ لا تحول المحاسبة إلى مجلس دائم لاحتقار نفسك، ولا إلى قائمة أعذار تمنعك من الاعتراف.

وإذا انقطعت عن عمل حسن، فعد إليه من موضع تستطيع البدء منه. قد يطول الطريق، لكنك لا تحتاج إلى حمل جميع أيامه مرة واحدة. إنما تقوم بحق الساعة التي أنت فيها، وترجو عون الله فيما يأتي.

والكل هين

قد يبقى الوجد، وتبقى المهمة شاقة، ويبقى الفقد عزيزاً. ومع ذلك يصير في القلب ما يعينه على الحمل؛ معرفة بربه، ورجاء في رحمته، ويقين بأن الدنيا لا تملك آخر كلمة في قصته.

ليس معنى «فالكل هين» أن الإنسان لا يتألم، أو أن حقوق الآخرين هينة، أو أن أسباب الحياة لا قيمة لها. المعنى الذي يستقيم مع الوحي أن ما يفوت من حظوظ الدنيا يهون في مقابل سلامة الدين ورضوان الله، وأن العبد يستعين بربه على ما يلقاه.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[النحل: ٩٧]

ابن تيمية، قاعدة في المحبة — مقتطف وبيان^{١١٨}

«وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين.»

يناقش ابن تيمية ظناً ينشأ حين يرى المرء رخاء أهل الباطل وابتلاء أهل الإيمان، فيتوهم أن الدين ينافي نعيم الدنيا أو أن وعود الله لا تتصل بها. وينبه إلى ضرورة مراجعة حكم الإنسان على نفسه وعلى غيره؛ فقد يزكي نفسه تزكية لا توافق حقيقة عمله، وقد يختزل النعيم في المال والسلطان.

والقراءة المنضبطة لا تجعل النجاح الدنيوي شهادة بصحة الدين، ولا الهزيمة أو المرض دليلاً على بطلانه. فقد ابتلي الأنبياء والصالحون، ولله حكمة في الابتلاء والإمهال، والعاقبة لا تقاس بلحظة واحدة. وبين يدي المؤمن خير حاضر في الإيمان والرجاء والعمل، مع سعيه المشروع إلى أسباب القوة والرزق والإصلاح.

ابن تيمية، قاعدة في المحبة — مقتطف وبيان ١١٩

«وأصلها الجهل بحقيقة الدين وبحقيقة النعيم الذي هو مطلوب النفوس في كل وقت.»

يشرح ابن تيمية كيف قد يضعف إقبال الإنسان على الدين إذا توهم أن الاستقامة لا تجتمع مع صلاح دنياه. والمشكلة في هذا التصور أنه يضع منفعة عاجلة متخيلة في مقابلة الطاعة، ويغفل عما في الحق من مصالح، وعما في المعصية من أضرار قد تتأخر.

فللمؤمن أن يطلب حسن العاقبة في الدنيا والنعيم التام في الآخرة، ويعمل ويدفع الضرر ويسعى إلى الرزق. ولكنه يميز بين المنفعة المشروعة وما يشتريه بئس دينه. ولا يعني ذلك أنه لا يتألم أو يفوته شيء؛ بل أن خسارة عابرة لا تحمل قلبه على إسقاط الحق كله أو اليأس من وعد الله.

قد يهون عليك أن يجهل الناس معروفك إذا علمت أن الله لا يجهله. وقد يهون عليك أن تترك مكسباً محرماً إذا رجوت بركة الحلال. وقد يخف بعض ما في صدرك من غيظ حين تعرف أنك تستطيع أن تطلب حقك بلا ظلم، أو تعفو حيث يكون العفو أصح. هذا الأثر لا يقع دائماً دفعة واحدة. تقرأ وتدعو وتجاهد، ثم ترى في موقف ما أنك صرت أقدر على الصدق مما كنت، وأخف تعلقاً بمدح الناس، وأسرع رجوعاً من خطئك. فاحمد الله، ولا تجعل التقدم الصغير باب إعجاب يفسد عليك ما نلت.

وفي «الفوائد» كلمة عن علامة صحة الإرادة، تصل رضا الرب بالاستعداد للقاءه:

ابن القيم، الفوائد — مقتطف وبيان ١٢٠

«علامة صحة الإرادة أن يكون هم المرید رضا ربه واستعداده للقاءه.»

يختم ابن القيم هذا المعنى بمراجعة الهم الذي يجمع الحياة: إلى ماذا يرجع المرء حين تتزاحم رغباته؟ إذا كان رضى الله مقصده، أعاد ترتيب عمله وراحته وحقوق أهله على ضوئه، واستدرك الوقت الذي مضى في الغفلة.

ولا يلزم من وحدة المقصد أن تختفي أعمال الدنيا؛ بل تنتظم حول نية صالحة وحدود واضحة. يبدأ اليوم بسؤال المعونة، ويؤدي ما عليه، ويصلح ما أخطأ فيه، ويمسي على رجاء القبول. وهكذا يكون الطريق قابلاً للمواصلة: صدق في الوجهة، وعمل بحسب القدرة، وتوبة لا تنقطع.

هنا يجتمع ما مر في الكتاب. المحبة وجهة، والاتباع طريق، والإخلاص قصد، والصبر زاد، والشكر وفاء، والرحمة أثر، والآخرة موعد. ويبقى القلب يكرر رجاءه، لا مدعيًا أنه استوفى حق الله، بل سائلًا أن يعينه ويرضى عنه.

وليتك ترضى

وصلنا إلى آخر الصفحات، ولم نصل إلى آخر الحاجة. ما زلنا نحتاج إلى صلاة تصلح، وذنوب يتاب منه، وحق يؤدي، وقلب يتعلم أن يحب ربه كما دل عليه الوحي. وهذه الحاجة نفسها تردنا إلى الباب الذي بدأنا منه: نحن فقراء إلى الله.

حين تقول: «وليتك ترضى»، فاجعل وراء الكلمة صدقاً تستطيع أن تعمل به. إن عرفت واجباً فقم به، وإن عرفت محرماً فاستعن بالله على تركه، وإن خفي عليك الحكم فاسأل. ولا تجعل جمال العبارة نهاية علاقتك بمعناها.

تعود الآيات الآن وقد حمل كل شطر منها قدراً من البيان. «تحلو» تذكر بجلاوة الإيمان وطاعة الله، دون أن نجعل الشعر مصدراً لإثبات اسم أو صفة. و«ترضى» تدعونا إلى إثارة أمره. و«عامر» تسألنا عن الصلاة والقرآن والتوبة. وما يلتبس من «خراب» يرد إلى حفظ حقوق الخلق مع رفض المعصية. و«الود» رجاء يسلك العبد أسبابه، و«التراب» تذكير بالرحيل الذي بعده بعث وحساب.

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ

[الفجر: ٢٧]

﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾

[الفجر: ٢٨]

﴿فَادْخُلِي فِي عِبْدِي﴾

[الفجر: ٢٩]

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

[الفجر: ٣٠]

نرجو أن نكون من أهل هذا النداء الكريم، ونسأل الله حسن الخاتمة، ولا نشهد لأنفسنا بما لم نعلم. وبين رجائنا ويوم لقائه أعمال قريبة، يسيرة في صورتها أحياناً، عظيمة بما تحمله من صدق وإيمان.

ربنا، ارزقنا محبتك، وصدق التوجه إليك، وحسن الاتباع لنبيك ﷺ. أصلح سرائرنا وعلايتنا، واغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنا. أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وعلى أداء حقوق عبادك.

اللهم إذا اتسعت لنا الحياة فلا تجعل سعتها تنسينا شكرك، وإذا ضاقت فلا تجعل ضيقها يقطع رجاءنا فيك. ارزقنا صبراً يحفظ ألسنتنا وأعمالنا، وعافية نستعملها في طاعتك، وتوبة صادقة نرجع بها عما يسخطك.

اللهم اجعل ما علمناه حجة لنا، وانفعنا بما قرأنا، وأعنا على ما عرفنا من الحق. لا تكلنا إلى أنفسنا، ولا تجعل حظنا من الخير وصفه للناس. ارزقنا قلباً سليماً، وعملاً مقبولاً، ولساناً صادقاً، وخاتمة ترضاهنا.

ربنا اغفر لنا ولآبائنا وأمهاتنا، ولمن علمنا وأحسن إلينا، وللمؤمنين والمؤمنات. وأدخلنا الجنة برحمتك، وأحل علينا رضوانك، واجعل خير أيامنا يوم نلقاك.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إحالات النصوص ومصادرها

أرقام الأحاديث للبخاري بحسب الترتيم الشائع، ولمسلم بحسب ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي. اقتصر في بعض المواضع على مقتطف مبين في الإحالة. والنقول عن العلماء مقتطفات، يتلوها تلخيص وشرح تحريري؛ فلا ينسب الشرح الجديد بلفظه إلى صاحب المصدر. عين موضع كل مقتطف من كتب العلماء بعبارة الدالة عليه، لتفاوت ترقيم النسخ الإلكترونية.

١ - ابن القيم، طريق المهجرتين وباب السعادتين، موضع: «الفقر فقران: فقر اضطرارى، وهو فقر عام لا...». المصدر

٢ - ابن تيمية، العبودية، موضع: «فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما أن...». المصدر

٣ - صحيح مسلم، الحديث ٣٤٠. المصدر

٤ - صحيح مسلم، الحديث ٤٣٠. المصدر

٥ - النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، موضع: «معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في...». المصدر

٦ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل...». المصدر

٧ - ابن تيمية، قاعدة في المحبة، موضع: «محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات...». المصدر

٨ - ابن تيمية، العبودية، موضع: «ألا نعبد إلا الله ولا نعبد إلا بما...». المصدر

- ٩ - صحيح البخاري، الحديث ٥٠٦٣. المصدر
- ١٠ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع...». المصدر
- ١١ - صحيح مسلم، الحديث ٢٧٥٥. المصدر
- ١٢ - صحيح البخاري، الحديث ٤٤١٨. المصدر
- ١٣ - صحيح مسلم، الحديث ٢٦٤٢. المصدر
- ١٤ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء...». المصدر
- ١٥ - صحيح البخاري، الحديث ٥٤. المصدر
- ١٦ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «لحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب. وحقيقة الصدق: توحيد الطلب...». المصدر
- ١٧ - صحيح البخاري، الحديث ٢٢٧٢. المصدر
- ١٨ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «الإيمان له ظاهر وباطن وظاهره قول اللسان وعمله...». المصدر
- ١٩ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «إيثار رضا الله عز وجل على غيره: هو...». المصدر
- ٢٠ - صحيح البخاري، الحديث ٧٥١٨. المصدر
- ٢١ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «ومن أعظم أسباب حصول الرضا: أن يلزم ما...». المصدر

٢٢ - النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، موضع: «معنى رضيت بالشيء قنعت به واكتفيت به ولم...». المصدر

٢٣ - صحيح البخاري، الحديث ١٣٠٣. المصدر

٢٤ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «وأما إنه من منازل الطريق فلا، والله سبحانه...». المصدر

٢٥ - صحيح البخاري، الحديث ١٢٨٤. المصدر

٢٦ - صحيح مسلم، الحديث ٢١٤٤. المصدر

٢٧ - ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، موضع: «وهذا ونحوه من القول الذى ليس فيه تظلم...». المصدر

٢٨ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار...». المصدر

٢٩ - صحيح مسلم، الحديث ٢٧٣٥. المصدر

٣٠ - صحيح مسلم، الحديث ٢٦٨٨. المصدر

٣١ - ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، موضع: «وبالجملة فالصبر على الواجب واجب، وعن الواجب حرام...». المصدر

٣٢ - صحيح البخاري، الحديث ١٢٨٣. المصدر

٣٣ - ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، موضع: «فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر...». المصدر

٣٤ - ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، موضع: «فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين...». المصدر

- ٣٥ - صحيح مسلم، الحديث ٢٦٦٤. المصدر
- ٣٦ - ابن تيمية، قاعدة في المحبة، موضع: «فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه...». المصدر
- ٣٧ - ابن تيمية، قاعدة في المحبة، موضع: «وأما المؤمن فإنه مع قدرته يفعل ما أمر...». المصدر
- ٣٨ - صحيح البخاري، الحديث ٥٢٨. المصدر
- ٣٩ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه...». المصدر
- ٤٠ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «فالأفضل في كل وقت وحال إثارة مرضاة الله...». المصدر
- ٤١ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته...». المصدر
- ٤٢ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «هجر القرآن أنواع...». المصدر
- ٤٣ - صحيح مسلم، الحديث ٨٠٤؛ مقتطف من الحديث. المصدر
- ٤٤ - صحيح البخاري، الحديث ٦٤٠٧. المصدر
- ٤٥ - ابن تيمية، العبودية، موضع: «والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه...». المصدر
- ٤٦ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر...». المصدر
- ٤٧ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب للسان...». المصدر

- ٤٨ - صحيح مسلم، الحديث ٠١١٦٣. المصدر
- ٤٩ - صحيح البخاري، الحديث ٠٦٤٦٤. المصدر
- ٥٠ - صحيح البخاري، الحديث ٠٤٨٣٧. المصدر
- ٥١ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «فإن الطاعة تتخلف من فوات واحد من هذه...». المصدر
- ٥٢ - صحيح مسلم، الحديث ٠٢٧٦٦. المصدر
- ٥٣ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «الإنبابة هي عكوف القلب على الله عز وجل...». المصدر
- ٥٤ - صحيح البخاري، الحديث ٠٦٥٠٢. المصدر
- ٥٥ - ابن تيمية، التحفة العراقية في الأعمال القلبية، موضع: «فأولياء الله هم المؤمنون المتقون...». المصدر
- ٥٦ - صحيح البخاري، الحديث ٧٢٥٧؛ مقتطف من الحديث. المصدر
- ٥٧ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه...». المصدر
- ٥٨ - صحيح البخاري، الحديث ٠٥٩٨٦. المصدر
- ٥٩ - صحيح البخاري، الحديث ٠١٩٦٨. المصدر
- ٦٠ - صحيح البخاري، الحديث ٠٦٧٦. المصدر
- ٦١ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «وضابط هذا كله العدل، وهو الأخذ بالوسط الموضوع...». المصدر
- ٦٢ - صحيح مسلم، الحديث ٠١٠١٧. المصدر

٦٣ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «المواساة للؤمن أنواع: مواساة بالمال، ومواساة الجاه، ومواساة...». المصدر

٦٤ - صحيح مسلم، الحديث ٢٥٠٤. المصدر

٦٥ - صحيح البخاري، الحديث ٦١١٤. المصدر

٦٦ - ابن تيمية، قاعدة في الصبر، موضع: «والأصل الثاني الشكر، وهو العمل بطاعة الله تعالى...». المصدر

٦٧ - صحيح مسلم، الحديث ٢٦٢٨. المصدر

٦٨ - صحيح مسلم، الحديث ٢٥٦٧. المصدر

٦٩ - صحيح مسلم، الحديث ٢٤٥٤. المصدر

٧٠ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق...». المصدر

٧١ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب...». المصدر

٧٢ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «ولا سبيل لأحد قط في الدنيا إلى مشاهدة...». المصدر

٧٣ - صحيح البخاري، الحديث ٣٦٥٣. المصدر

٧٤ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله...». المصدر

٧٥ - ابن تيمية، العبودية، موضع: «وبالعبودية نعت كل من اصطفى من خلقه...». المصدر

٧٦ - صحيح البخاري، الحديث ١٤٧١. المصدر

- ٧٧ - ابن تيمية، قاعدة في المحبة، موضع: «فالعلم بالعدل قبل فعل العدل». المصدر
- ٧٨ - صحيح مسلم، الحديث ٢٥٤٢. المصدر
- ٧٩ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «فن تحقق بمعاني الفاتحة علما ومعرفة وعملا وحالا...». المصدر
- ٨٠ - صحيح مسلم، الحديث ٢٩٦٤. المصدر
- ٨١ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة...». المصدر
- ٨٢ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «وليس على العبد أضر من مله لنعم الله...». المصدر
- ٨٣ - صحيح البخاري، الحديث ١٤٦١. المصدر
- ٨٤ - صحيح مسلم، الحديث ٢٠٥٤. المصدر
- ٨٥ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «فالإيثار ضد الشح...». المصدر
- ٨٦ - صحيح مسلم، الحديث ٢٦٧٥. المصدر
- ٨٧ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «والأنس ثمره الطاعة والمحبة...». المصدر
- ٨٨ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «فكن مع مراده منك، ولا تكن مع مرادك...». المصدر
- ٨٩ - صحيح البخاري، الحديث ٦٤١٦. المصدر
- ٩٠ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «والكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذوق...». المصدر
- ٩١ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «وأفضل الزهد إخفاء الزهد، وأصعبه الزهد في الحفظ...». المصدر

- ٩٢ - صحيح البخاري، الحديث ١٢٩٥. المصدر
- ٩٣ - صحيح البخاري، الحديث ٣١٢٩. المصدر
- ٩٤ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «وكما يتعلق الثواب والعقاب والمدح والذم بإخراج الدرهم...». المصدر
- ٩٥ - صحيح البخاري، الحديث ١٢٧٥. المصدر
- ٩٦ - صحيح البخاري، الحديث ٣٨٩٧. المصدر
- ٩٧ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات...». المصدر
- ٩٨ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «فالحفيظ الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب المقبل...». المصدر
- ٩٩ - صحيح مسلم، الحديث ١٦٣١. المصدر
- ١٠٠ - صحيح البخاري، الحديث ٤٧٨٠. المصدر
- ١٠١ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «فإن الخوف المجرد عن الأمن من كل وجه...». المصدر
- ١٠٢ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «الشوق إلى الله لا ينافي الشوق إلى الجنة...». المصدر
- ١٠٣ - صحيح مسلم، الحديث ١٩٠١؛ مقتطف من الحديث. المصدر
- ١٠٤ - صحيح البخاري، الحديث ٢٨٠٩. المصدر
- ١٠٥ - صحيح مسلم، الحديث ٢٦٨٤. المصدر
- ١٠٦ - صحيح البخاري، الحديث ٥٦٧١. المصدر

١٠٧ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «من منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة الشوق». المصدر

١٠٨ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «والشوق أثر من آثار المحبة، وحكم من أحكامها». المصدر

١٠٩ - ابن القيم، مدارج السالكين، موضع: «فالعبودية تجمع كمال الحب في كمال الذل، وكمال...». المصدر

١١٠ - صحيح البخاري، الحديث ٣٩. المصدر

١١١ - صحيح مسلم، الحديث ٢٩٩٩. المصدر

١١٢ - ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، موضع: «فأيهما أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل، فإن استويا...». المصدر

١١٣ - ابن القيم، طريق المهجرتين وباب السعادتين، موضع: «مقبل على شأنه، مكرم لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ...». المصدر

١١٤ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «فسعاداته في صدق العزيمة وصدق الفعل». المصدر

١١٥ - صحيح البخاري، الحديث ٥٨٦١؛ مقتطف من الحديث. المصدر

١١٦ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «وصحة الاقتداء بالرسول لقاح الإخلاص، فإذا اجتمعاً أثمر...». المصدر

١١٧ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة...». المصدر

١١٨ - ابن تيمية، قاعدة في المحبة، موضع: «وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين». المصدر

١١٩ - ابن تيمية، قاعدة في المحبة، موضع: «وأصلها الجهل بحقيقة الدين وبحقيقة النعم الذي هو...». المصدر

١٢٠ - ابن القيم، الفوائد، موضع: «علامة صحة الإرادة أن يكون هم المرید رضا...». المصدر

فهرس الآيات المستقلة

يشمل الآيات المفردة في سياق التأليف، أما الآيات الواقعة داخل كلام العلماء فتراجع في مواضعها.

البقرة: ٢٠١ - العافية التي نرجوها

البقرة: ٢١٦ - ما خفي عنك من الحكمة

آل عمران: ٣١ - الطريق الذي دلّ عليه الحبيب

آل عمران: ٩٢ - أن تبذل مما تحب

النساء: ١٩ - بيتك موضع عبادتك

النساء: ٢٨ - اصدق في ضعفك

المائدة: ٥٤ - يحبهم ويحبونه

التوبة: ٤٠ - التوكل الذي يحمل قلبك

التوبة: ٧٢ - رضوان لا يعقبه سخط

التوبة: ١١٩ - حين يتعارض الرضيان

يوسف: ٨٦ - الذي تبكي أمامه

الرعد: ٢٨ - قلب لا يشبعه المتاع

الحجر: ٤٩ - خوف ورجاء يحفظان المحبة

الحجر: ٥٠ - خوف ورجاء يحفظان المحبة

- الحجر: ٩٩ - لا نهاية للعبودية
النحل: ٥٣ - الشكر حين تتسع الحياة
النحل: ٩٧ - والكل هين
الكهف: ٤٦ - حقيقة المسافر
طه: ١٤ - موعدك مع الصلاة
الأنبياء: ٨٣ - لا يزال للدعاء مكان
الأنبياء: ٨٤ - لا يزال للدعاء مكان
النور: ٢٢ - في حضرة غضبك
الشعراء: ٨٨ - سريرة يصلح بها الظاهر
الشعراء: ٨٩ - سريرة يصلح بها الظاهر
النمل: ٦٥ - يقين يعرف قدره
القصص: ٧٧ - تملك المال ولا يملكك
العنكبوت: ٥ - على باب اللقاء
لقمان: ١٥ - لا تهدم ما أمرك الله بعمارته
السجدة: ١٦ - ولليل نصيب
السجدة: ١٧ - نعيم ترجو بلوغه
الأحزاب: ٤١ - الذكر الذي يردك
الأحزاب: ٤٢ - الذكر الذي يردك

- فاطر: ١٥ - حين تثقل الروح
يس: ٧٨ - ما لا تأخذه الأرض
يس: ٧٩ - ما لا تأخذه الأرض
الزمر: ٢ - لك وحدك
الزمر: ٥٣ - عُد كلها ابتعدت
الزمر: ٥٤ - عُد كلها ابتعدت
الحجرات: ١٣ - الغني الشاكر والفقير الصابر
ق: ٣٧ - القرآن حين يسمعه قلبك
الحديد: ٢٠ - حين تتذكر مصعباً
الجمعة: ١٠ - يد تعمل وقلب يتوكل
الفجر: ٢٧ - وليتك ترضى
الفجر: ٢٨ - وليتك ترضى
الفجر: ٢٩ - وليتك ترضى
الفجر: ٣٠ - وليتك ترضى
الزلزلة: ٧ - ما لا تأخذه الأرض
الزلزلة: ٨ - ما لا تأخذه الأرض

كتب صحت الرحلة

القرآن الكريم. صحيح البخاري. صحيح مسلم. رياض الصالحين للنووي: للاستئناس
بترتيب الأخبار وشرح غريبها.

ابن القيم، طريق المهجرتين وباب السعادتين.

ابن تيمية، العبودية.

النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.

ابن القيم، مدارج السالكين.

ابن تيمية، قاعدة في المحبة.

ابن القيم، الفوائد.

ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

ابن تيمية، التحفة العراقية في الأعمال القلبية.

ابن تيمية، قاعدة في الصبر.

قوبلت المقتطفات على نصوص إلكترونية للكتب المذكورة، مع تعيين مواضعها في
الإحالات. وقد روعي أن حكاية العالم قولاً لا تعني تبنيه، وأن وجود خبر في كتب
الرقائق لا يكفي وحده لتصحيحه.